عدنان الطرشة

مجالسنا إلى أين؟!

تقديم معالي الشيخ

صالح بن عبدالعزيز بن محمد آل الشيخ

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطرشة، عدنان

مجالسنا إلى أين./ عدنان الطرشة ـ ط٣ . ـ الرياض، ١٤٢٦هـ

١٤٦ ص؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٩ ـ ٨١٥ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ الوعظ والإرشاد أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ٤٨٢٦ / ١٤٢٦

ردمك: ٩ ـ ٨١٥ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٤٨٢٦ / ١٤٢٦

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض. العليا. تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص. ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤١٦٠٠١٨ - ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي المحامد، والثناءُ عليه أفضلَ ما أثنى عليه عابد، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليمًا، وبعد:

فإن مجالسَنا اليومَ قد أضناها المرضُ، وأعْيَتْها العِلَلُ التي قَلَّما توجه لها أطباءُ القلوبِ بالإصلاح، **بل قد أعدى مرضُها أولئك المصلحين فأنِسوا للمجالسِ المريضةِ، وزادوا في علَّتها، وراحوا وغَدَوْا مع المرضى.**

إن مجالسَنا فيها أمراضٌ كثيرةٌ سَبَبُها اللسانُ والجنانُ، وإن السَعْيَ في إصلاحِها وإبرائها من عللها لواجبٌ على المؤمنين.

وهذه الرسالةُ النفيسةُ «مجالسُنا إلى أين» علاجٌ لعللٍ في تلك المجالس، كتبها الأستاذ عدنان الطرشه بأسلوبٍ حَسَنٍ يناسب العصرَ، مع العنايةِ بالأدلةِ الشرعية، وكلام أهل العلم.

ومواضيعُها جديرةٌ بأن تطرح في المجالس، ويُخْطَبَ بها الخُطَبُ، ويُرَبِّيْ عليها المربون، لما فيها من جزيل الفوائد، وفائدة الفوائد.

نفع الله بها، وبغيرها من الكتب التي تُصْلِحُ أحوالَنا، وأسألُ اللهَ أن يقيَنا الشرورَ كُلَّها وينيرَ مجالِسَنا بالوحيين واللهُ الهادي إلى سواء السبيل، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه:
صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ
عفا الله عنه وعن والديه

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وسلم تسليمًا.

أما بعد:

إن كل إنسان يعيش في هذه الدنيا لا بد له من أن يتواجد في وقت من الأوقات في مجلس ما من مجالس الناس التي هي جزء لا يتجزأ من هذه الحياة، ولا يمكن لأحد أن يتجنب مجالس الناس إلا أن يعيش بمفرده في جزيرة نائية في عرض البحر.

ومجالس الناس أنواع كثيرة جدًا، فمن يرد الله به خيرًا يوفقه إلى حضور الصالح منها، فإذا حصل أن تواجد في مجلس من المجالس الأخرى استفاد منها باتخاذ العبر على حسب قول الشاعر:

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

فيعرف نوعية المجالس التي يجب عليه أن يتوقاها، ويحرص على تجنب حضورها في المستقبل، ويستفيد مما جرى فيها بأن

يكون قد أصبح لديه فكرة وخبرة تمكنه من المقارنة بين المجالس الصالحة والمجالس السيئة.

وقد حرص نبينا المصطفى ﷺ على أن يبين لنا أنواع المجالس والجلساء، وبيَّن لنا الفوائد والخسائر. وقد بلغ اهتمامه ﷺ بالمجالس أن بيَّن آدابها وسننها، فمن آدابها مثلاً، قال ﷺ: «**لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه**»(١)، وكان ابن عمر إذا قام له رجل عن مجلسه لم يجلس فيه.

وقال ﷺ: «**إذا قام أحدكم من مجلسه، ثم رجع إليه، فهو أحق به**»(٢)، وعن جابر بن سمرة رضي الله عنهما، قال: كنا إذا أتينا النبي ﷺ، جلس أحدنا حيث ينتهي(٣). وقد بين النبي ﷺ أنه لا يجوز للرجل أن يجلس بين اثنين إلا إذا أذنا له فقال ﷺ: «**لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما**»(٤)، وقد لعن النبي ﷺ من يجلس وسط الحلقة أو المجلس.

ومن سنن المجالس التي بينها رسول الله ﷺ أنه: «**من قعد مقعداً لم يذكر الله فيه كانت عليه من الله ترة**»(٥). وأنه «**ما جلس**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستئذان، باب لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٠.

(٤) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٥٥.

(٥) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٥٦.

قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم، إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم، وإن شاء غفر لهم»[١].

وقد حذر نبينا ﷺ الداخل إلى مجالس الناس أو الخارج منها من عاقبة خطيرة تترتب على حبه أن يتمثل له الجالسون قيامًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «**من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[٢].

أما عند القيام من المجلس فقد سنَّ لنا رسول الله ﷺ سنة وهي أنه: «**مَن جلس في مجلس فكثر فيه لغطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك**»[٣]، فهذا دعاء كفارة المجلس، واللغط، أي الكلام الذي لا ينفع في الآخرة.

أما عن صنف الجليس الذي يجب على المسلم أن يحرص على اختياره فقد بيَّن لنا النبي ﷺ أن «**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[٤]. وذلك لأن «**المرء مع من أحب**»[٥] ودلنا على أنه «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[٦]، والسبب

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٦٩١.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٣٥٧.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٧٣٠.

(٤) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٦.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب علامة حب الله عزَّ وجلَّ.

(٦) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٥.

في ذلك يعود إلى أن هناك اختلافًا كبيرًا بين هذا الصنف من الجلساء أو الأصدقاء الذي يدعونا النبي ﷺ إلى اختياره، وبين الصنف الآخر الذي يحذرنا من اتخاذه صديقًا أو حتى الجلوس معه، والاختلاف هو:

«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبةً، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة»(١).

وقد بيَّن لنا نبي الهدى ﷺ أفضل المجالس وأشرفها وحثنا على إقامتها أو ارتيادها للفوز بخيري الدنيا والآخرة، فقال ﷺ: **«لا يقعد قوم يذكرون الله عزَّ وجلَّ إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة؛ وذكرهم الله فيمن عنده»**(٢).

وقد خرج ﷺ، على حلقة من أصحابه فقال: **«ما أجلسكم»**؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا. قال: **«آلله ما أجلسكم إلا ذاك»**؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: **«أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عزَّ وجلَّ يباهي بكم الملائكة»**(٣).

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن لله تبارك وتعالى ملائكة سيارة فضلاً يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر، قعدوا معهم، وحف بعضهم بعضًا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم الله عزَّ وجلَّ -وهو أعلم بهم-: من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض: يسبحونك، ويكبرونك، ويهللونك، ويحمدونك، ويسألونك. قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا، أي رب. قال: فكيف لو رأوا جنتي؟! قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيروني؟ قالوا: من نارك يا رب. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأوا ناري؟! قالوا: ويستغفرونك. فيقول: قد غفرت لهم، فأعطيتهم ما سألوا، وأجرتهم مما استجاروا. فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر، فجلس معهم، فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[1].

وقد كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على القعود في مجالس الذكر ومجالسة الذين يدعون ربهم ويقول: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس، أحب إليَّ من أن أعتق أربعة من وُلْدِ إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم يذكرون

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل مجالس الذكر.

الله من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس، أحب إليَّ من أن أعتق أربعة»[١].

وقد كان ﷺ إذا مر بقوم يذكرون الله أو يقرؤون القرآن يجلس معهم طاعة لأمر الله تبارك وتعالى له: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ**﴾[٢]. «**أي اجلس مع الذين يذكرون الله ويهللونه ويحمدونه ويسبحونه ويكبرونه ويسألونه بكرة وعشيًا من عباد الله سواء كانوا فقراء أو أغنياء أو أقوياء أو ضعفاء**»[٣]. فالله عزَّ وجلَّ يأمر نبيه المصطفى ﷺ بالجلوس مع هؤلاء، والأمر موجه لكل مسلم.

فإذا كانت هذه أفضل المجالس وأشرفها، فإن هناك أنواعًا كثيرة من المجالس الأخرى، أي؛ مجالس السوء. وعن هذه المجالس كانت هذه الرسالة؛ التي جاءت حصيلة مجالس حضرتها لأغراض مختلفة قد تكون للعيادة، أو للتهنئة بعيد أو مولود أو غير ذلك، أو لوداع مسافر أو تهنئته بالوصول من السفر، أو غير ذلك من الآداب والعادات الاجتماعية التي يواجهها كل إنسان ويقوم بها راغبًا حينًا وغير راغب أو مضطرًا أحيانًا أخرى.

---

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣١١٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٨٥.

وبما أن ما يستخدمه الإنسان في هذه المجالس هو اللسان، فقد بدأت الرسالة بفصل عنه وعن الكلمة التي تخرج بواسطته، ثم تحدثت في فصول أخرى عن: مجالس الغيبة بلباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومجالس الثرثرة، ومجالس السخرية والاستهزاء والاحتقار، ومجالس الإفك، ومجالس اللعن والطعن.

وكما في قول الشاعر السابق، فإني أرجو لأخي القارئ أن يكوِّن فكرة عن مجالس الشر حتى يتوقاها ولا يقع فيها، وآمل أن أكون قد وفقت في تقديم صورة واقعية تخدم هذا الغرض. وأسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذه الرسالة المسلمين، إنه أكرم مأمول وبالإجابة جدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

عدنان الطرشة
ص.ب ٣٣٦٢ الرياض ١١٤٧١
المملكة العربية السعودية
at@adnantarsha.com
www.adnantarsha.com

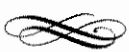

اللسان

اعلم رحمك الله أن اللسان نعمة كبرى من الله عزَّ وجلَّ، فهو آلة العلوم، وترجمان القلب ورسوله المؤدى عنه، أودع الله فيه منافع كثيرة ومنها منفعة الكلام، ويا لها من منفعة عظيمة...!

وجعل سبحانه اللسان عضوًا لحميًا، لا عظم فيه لتسهل حركته، لذا تجده لا يكترث بالحركة ولا يكل ولا يتعب، على عكس بقية الأعضاء التي لو حركتها مثلما تحرك اللسان لم تطق ذلك. وقد خلق الله تعالى هذه المزية باللسان ليكون العبد قادرًا على استعماله بذكر الله على الدوام كما كان رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «**كان النبي ﷺ، يذكر الله على كل أحيانه**»[1].

إن للعبد بكل كلمة ذكر ينطق بها لسانه من الأجر والثواب ما لا يحصيه إلا الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»[2].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب ذكر الله تعالى في حال الجنابة وغيرها.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال والله لا أتكلم اليوم...

لست هنا في صدد الحديث عن الذكر وشرفه وفضله، وإنما أريد أن أبرهن على أن لحركة اللسان بالكلام أهمية عظيمة كمدخل إلى موضوع هذا الباب أو هذه الرسالة. فكل كلمة ينطق بها اللسان لها نتائج وثمرات إما حسنة وإما سيئة. وسأبدأ هنا بالحديث عن ثمرات تحريك اللسان بالذكر وهي الثمرات الحسنة الطيبة، ولهذا سأذكر بعض الأحاديث التي تدل على ذلك:

قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غرست له نخلة في الجنة**»(١).

وقال ﷺ: «**أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة**» فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟ قال: «**يسبح مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة**»(٢)، وفي رواية «**ويحط**» بغير ألف.

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. في يوم، مئة مرة. كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مئة حسنة، ومحيت عنه مئة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان، يومه ذلك، حتى يمسي. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك**»(٣).

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٧٥٧.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.

وقال ﷺ: «**من قال سبحان الله وبحمده، في يوم مئة مرة، حطت عنه خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن: ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(٢).

وعن طريق اللسان يمكن للمسلم، حتى عندما يدخل إلى السوق للبيع أو الشراء أو غير ذلك، أن يكسب مليون حسنة، ويُمحى عنه مليون سيئة، ويُرفع له مليون درجة فيما لو حركه بذكر واحد وهو ما أخبر به ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحى عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة**»(٣).

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جدًا ويكفي ما ذكرته لأدل على المقصود. وخلق الله اللسان ليكون العبد قادرًا أيضًا على استخدامه في الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغير ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل التسبيح.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٣٢٧.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٧٢٦.

من الأعمال الجليلة التي تتطلب استخدام اللسان، وإلى جانب ذلك لاستخدامه في الأمور المعيشية التي يُحتاج إليها.

آفات اللسان:

إذا علمت أن تحريك اللسان بالذكر ينتج عنه هذه الثمرات الطيبة، فاعلم أن تحريك اللسان بالكلام السيئ ينتج عنه أيضًا ثمرات، ولكن ثمرات سيئة ونتائج وخيمة، لأن اللسان مثل غيره من الأعضاء قابل للاستخدام في الخير وفي الشر. وبقدر ما يكون اللسان سببًا في اكتساب الأجر والثواب إذا استعمل في الخير، يكون أيضًا سببًا في اكتساب الوزر والعقاب إذا استعمل في الشر.

وكما للسان فضائل فله أيضًا آفات، وآفات اللسان كثيرة جدًا ومنها: الكلام فيما لا يعني، والخوض في الباطل، والمراء والجدال والخصومة، والتشدق، والفحش والسب وبذاءة اللسان، واللعن إما لإنسان أو حيوان أو جماد، والطعن، والغناء والشعر في الباطل، والمزاح بغير الحق، والسخرية والاستهزاء، وإفشاء السر، والوعد الكاذب، والكذب في القول واليمين، والغيبة والنميمة، وآفات أخرى كثيرة.

فـ «اللسان رحب الميدان، ليس له مرد ولا لمجاله منتهى وحد، له في الخير مجال رحب، وله في الشر ذيل سحب، فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخي العنان سلك به الشيطان في كل ميدان

وساقه إلى شفا جرف هار إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله. وعلم ما يحمد فيه إطلاق اللسان أو يذم غامض عزيز والعمل بمقتضاه على من عرفه ثقيل عسير، وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان، فإنه لا تعب في إطلاقه ولا مؤنة في تحريكه، وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان»[١].

الكلمة:

قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[٢].

إن كل كلمة ينطق بها الإنسان محسوبة له أو عليه، وفي القرآن آيات كثيرة تؤكد هذا الأمر وتدل على أن للكلمة شأنًا عظيمًا ولها جزاء من جنسها، فإن كانت خيرًا فخير، وإن كانت شرًا فشر، قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[٣].

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١٠٨/٣.

(٢) سورة ق، الآية: ١٨.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

وهذا... حتى يتفكر الإنسان جيداً بالكلمة قبل النطق بها، فيتجنب التلفظ بالكلام المحرم أو المكروه لكي لا يسجل عليه ذلك في كتابه الذي سوف يقرأه يوم القيامة كما في قول الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[١]، وحتى لا يقول إلا خيراً، لا أن يطلق العنان للسانه بالكلام دون تفكر فيه...! قال رسول الله ﷺ: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت**»[٢].

وهذا الحديث صريح في أنه لا ينبغي للإنسان أن يقول إلا ما هو خير، وإن لم يكن لديه ذلك أو شك في الكلام فلم يعرف إذا كان فيه خيراً أم لا، فالأسلم له أن يسكت، لأن السلامة لا يعدلها شيء، فهو لا يدري ماذا سوف تكون نتائج كلمته، يقول رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[٣].

فإن كان هذا هو شأن الكلمة الواحدة، فكيف بالجُمل والأحاديث المحرمة التي دأب الناس عليها في مجالسهم التي لا

---

(١) سورة الإسراء، الآيتان: ١٣-١٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب حفظ اللسان.

تطيب لهم ولا تحلو من دونها؛ مثل الغيبة والنميمة واللعن والطعن والاستهزاء وغير ذلك من آفات اللسان التي تودي إلى المهالك؟! ولا يعمل أحد منهم حساب ذلك ظنًا منهم أنه ليس هناك مؤاخذة على الكلام! وكأني بهم لم يسمعوا ما قاله النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه، قال معاذ: فقلت يا نبي الله وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم؟!**»[1].

رب كلمة جرت إلى حرب...! ومع ذلك فإن أغلب الناس اليوم لم يعد يشعر بخطورة الكلمة ونتائجها، ولو أرادوا لكفاهم أن يعلموا أن المسلم يطلق امرأته بكلمة واحدة يتلفظ بها، فهو يتزوجها بكلمة ويطلقها بكلمة، بل يكفيهم أن يعلموا أن الكافر يعصم دمه وينتقل من صفوف الكفار إلى صفوف المسلمين بالنطق بالشهادتين وما هي إلا مجرد كلمة يتلفظ بها، وقد يكون منافقًا ومع ذلك يدخل في عداد المسلمين ويصبح له ما لهم وعليه ما عليهم، وما ذلك إلا لعظيم شأن الكلمة...! قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم**»[2].

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢١١٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب حفظ اللسان.

ولكن كيف سيعلمون وهم في غفلة يعمهون...؟! تهاونوا في أمر الكلام فأطلقوا العنان للسان حتى أصبح الكلام عندهم ليس له أية أهمية، وبالتالي لم يعد أحدهم هو نفسه يلتزم بما يقول ويحترم، فقد يعطي موعداً وهو الذي يخلفه...! ويعاهد عهداً وهو الذي ينقضه...! ويعقد اتفاقًا وهو الذي يخالفه...! بل يحدثك بالحديث أنت له به مصدق وهو لك به كاذب...! وهذا ليس إلا خيانة كبيرة.

والاستمرار على هذه الطريقة سوف تكون نتيجتها كما جاء في الحديث: «**وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا**»[١]، هذا فضلاً عن كونه يصبح منافقًا معلوم النفاق، وصفات المنافق هي كما أخبرنا بها النبي ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**»[٢]، زاد في رواية لمسلم: «**وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم**»[٣].

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب علامة المنافق.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب خصال المنافق.

الغيبة

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[1].

ما هي الغيبة...؟ عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قيل: يا رسول الله! ما الغيبة؟ قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[2].

«**ذكرك أخاك بما يكره**»... هي القاعدة التي علمنا إياها رسول الله ﷺ لنعرف بها حد الغيبة، وهي القاعدة التي يجب أن يضعها نصب عينيه كل من يريد أن يتحدث عن أخيه المسلم في غيبته. فالذي يريد أن يتكلم عن أخيه حتى ولو كان فيه ما يقول، ويعلم أنه لو بلغه كلامه لكرهه، فليمسك لسانه عن ذلك، وإن كان لا بد فلا يقل إلا خيرًا، وإن أبى إلا أن يتبع هواه فليعلم أنه صاحب غيبة، عاص لربه، وآكل للحم أخيه.

قال رسول الله ﷺ: «**كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله**

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٧٩.

وعرضه»[١]. والغيبة تتناول العرض، وقال ﷺ: «لما عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم! فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[٢].

والغيبة: «ذكرك أخاك بما يكره»... سواء ذكرته بنقصان في بدنه أو نسبه أو خلقه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه، حتى في ثوبه وداره ووسيلة تنقله، حتى ذكر بعض المتقدمين: لو قلت: إن فلانًا ثوبه طويل أو قصير يكون ذلك غيبة، فكيف ذكرك ما يكره من نفسه. وقال الحسن: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله عزَّ وجلَّ: فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك عنه.

والغيبة لا تقتصر على اللسان فقط، بل كل ما يفهم الغير نقصان أخيك المسلم فهو داخل في الغيبة، قال النووي: «سواء ذكرته بلفظك أو في كتابك، أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك. وضابطه: كلما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.
(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٨٢.
(٣) النووي: الأذكار ٣٠٠.

وعدم تعرضك لشخص معين ولكن الغير يفهم من كلامك شخصًا معينًا تتكلم عنه فهو غيبة، وإن لم يفهم جاز، كأن تقول: قال، أو فعل قوم كذا، فقد كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئًا قال: «**ما بال أقوام يقولون كذا وكذا...**» أو «**ما بال رجال...**» أو «**ما بال أحدكم...**»... إلخ.

ومن الغيبة أيضًا الإصغاء إليها على سبيل التعجب وربما يكون ذلك سببًا للاندفاع في الغيبة، كأن يقول متعجبًا: أصحيح ما تقول؟! لم أعرف هذا من قبل...! وماذا أيضًا..؟! وكلام آخر من هذا القبيل، فيزداد نشاط المغتاب ويندفع فيها ليزيد مستمعيه علمًا فينال إعجابهم أكثر فأكثر، وربما يدفعه ذلك لأن يتكلف الكلام تكلفًا لجذب الانتباه؛ وهذا بدوره يقود إلى البهتان فيقول ما ليس في أخيه.

وسواء عليه اغتاب أخاه أم بهته، فإنه قد لا ينجو من الوقوع في الإفك عندما يقوم مستمعيه بنقل ما يبلغهم به إلى الآخرين، فيكون له ما اكتسب من الإثم، هذا إن لم يكن قد وقع فيه فعلاً بنقله لهم ما بلغه عن أخيه من أشخاص آخرين ولم يكن قد رأى ذلك بنفسه، قال الله تعالى في الذين جاؤوا بالإفك: ﴿**إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ**﴾[1].

---

(١) سورة النور، الآية: ١٥.

الأسباب الباعثة على الغيبة:

البواعث على الغيبة كثيرة؛ منها ما هو في حق العامة، ومنها ما هو في حق أهل الدين والخاصة، فمن الأسباب التي تبعث العامة على الغيبة: التشفي، وذلك حين يكون الإنسان غاضبًا على إنسان آخر لسبب ما فإنه يتشفى بذكر مساويه، والحقد والغضب والحسد والسخرية والاستهزاء وموافقة الأقران... وأسباب أخرى كثيرة جمعها الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- في أحد عشر سببًا وفصلها في كتابه (إحياء علوم الدين)[1] وهذه بعضها. فمن الأسباب التي تبعث العامة على الغيبة:

الأول: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة، وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهارًا للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوئ.

الثاني: إرادة التصنع والمباهاة، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول: فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف! وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك.

---

(١) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين ١٤٦/٣.

الثالث: اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب.

الرابع: السخرية والاستهزاء استحقارًا له فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضًا في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

ومن الأسباب التي تبعث أهل الدين والخاصة على الغيبة:

الأول: أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين، فيقول ما أعجب ما رأيت من فلان...! فإنه قد يكون به صادقًا ويكون تعجبه من المنكر، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه، فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه، فصار به مغتابًا وآثمًا من حيث لا يدري.

الثاني: الرحمة، وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول: مسكين فلان قد غمني أمره وما ابتلي به، فيكون صادقًا في دعوى الاغتمام ويلهيه الغم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتابًا فيكون غمه ورحمته خيرًا وكذا تعجبه، ولكن ساقه الشيطان إلى شرٍ من حيث لا يدري، والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه.

الثالث: الغضب لله تعالى، فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء. فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذرًا في ذكر الاسم وهو خطأ.

المباح من الغيبة:

قد عرفت أن الغيبة محرمة كتابًا وسنة وإجماعًا، إلا إنه قد استثنى جماعة من العلماء بعض الصور التي صرحوا بأنه يجوز فيها الغيبة، وقالوا بأن الذي يبيح الغيبة وذكر مساوئ الغير، أغراض صحيحة في الشرع لا يمكن الوصول إليها إلا بها، وكلامهم في ذلك متفاوت، وما ذكروه من الصور المستثناة مختلف، وأقتصر هنا على ذكر الأسباب الستة التي أوردها النووي وقال أن الغيبة تباح من أجلها وهي[1]:

الأول: التظلم، فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن له ولاية، أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول: ظلمني فلان بكذا.

---

(١) راجع صحيح مسلم بشرح النووي: باب تحريم الغيبة ١٤٢/١٦، وكتاب رياض الصالحين: باب بيان ما يباح من الغيبة.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

الثالث: الاستفتاء، فيقول للمفتي: ظلمني أبي، أو أخي، أو زوجي، أو فلان بكذا، فهل له ذلك؟ وما طريقي في الخلاص منه، وتحصيل حقي، ودفع الظلم؟ ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، ولكن الأحوط والأفضل أن يقول: ما تقول في رجل أو شخص، أو زوج، كان من أمره كذا؟ فإنه يحصل به الغرض من غير تعيين، ومع ذلك فالتعيين جائز لما روت عائشة رضي الله عنها، عن أن هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان قالت: يا رسول الله! إن أبا سفيان رجل شحيح، وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم. فقال: «**خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف**»[1].

الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة والشهود، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة.

ومنها المشاورة في مصاهرة إنسان، أو مشاركته، أو إيداعه، أو

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب النفقات، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف.

معاملته، أو غير ذلك، أو مجاورته، ويجب على المشاوَر ألا يخفي حاله، بل يذكر المساوئ التي فيه بنية النصيحة.

ومنها إذا رأى متفقهًا يتردد إلى مبتدع، أو فاسق يأخذ عنه العلم، وخاف أن يتضرر المتفقه بذلك، فعليه نصيحته ببيان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة، وهذا مما يغلط فيه، وقد يحمل المتكلم بذلك الحسد، ويلبس الشيطان عليه ذلك، ويخيل إليه أنه نصيحة فليتفطن لذلك.

ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها على وجهها: إما بألا يكون صالحًا لها، وإما بأن يكون فاسقًا، أو مغفلاً، ونحو ذلك فيجب ذكر ذلك لمن له عليه ولاية عامة ليزيله، ويولِّي من يصلح، أو يعلم ذلك منه ليعامله بمقتضى حاله، ولا يغتر به، وأن يسعى في أن يحثه على الاستقامة أو يستبدل به.

الخامس: أن يكون جاهرًا بفسقه أو بدعته، كالمجاهر بشرب الخمر، ومصادرة الناس، وأخذ المكس، وجباية الأموال ظلمًا، وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ويحرم ذكره بغيره من العيوب، إلا أن يكون لجوازه سبب آخر مما ذكرناه. قال الحسن: ثلاثة لا غيبة لهم: صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسقه، والإمام الجائر. فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره؟! نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم.

السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب، كالأعمش والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، وغيرهم، جاز تعريفهم بذلك، لأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن قد صار مشهورًا به، ولكن يحرم إطلاقه على جهة التنقص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أولى.

وبالرغم من أن الشوكاني قد تعقب النووي بأن بعض هذه الأسباب والصور لا يصح جعلها من الصور المستثناة من تحريم الغيبة وعدَّها غيبة محضة[1]، إلا إنه على الأكثر إذا لم يكن الدافع إلى ذكر المساوئ واحدًا من هذه الأمور فاعلم إنها الغيبة المحرمة. عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني: قصيرة - فقال: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر مزجته**»[2].

الله أكبر...! كلمة واحدة لو مزجت بماء البحر لمزجته...! تأمل ذلك جيدًا... كلمة واحدة... فما بالك بالجمل والأحاديث الطويلة التي يطلقها الناس إلا من رحم الله وقليل ما هم...! وإذا كان الذي يجاهر بفسقه وبشربه الخمر يحرم ذكره بغيره من العيوب، وإذا كان الذي يفعل ذلك مستترًا لا بد من مراعاة حرمته، فما بالك بمن يُرمى باتهامات باطلة ظلمًا وعدوانًا؟!.

---

(١) انظر كتابه: رفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٨٠.

فوائد جليلة:

العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة:

اعلم أن لكل داء دواء، وكما لأمراض الجسم علاج، فأيضًا لأمراض النفس علاج، والغيبة هي أحد أمراض النفس وعلاجها لا يتم إلا بالعلم والعمل، وهاك بعض ما قاله أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: اعلم أن مساوئ الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وإنما علاج كل علة بمضادة سببها، فلنفحص عن سببها، وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين: أحدهما على الجملة، والآخر على التفصيل:

أما على الجملة: فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عزَّ وجلَّ ومشبه عنده بآكل الميتة، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل به الرجحان ويدخل بها النار.

وينفعه أيضًا أن يتدبر في نفسه، فإن وجد فيها عيبًا اشتغل بعيب نفسه، ومهما وجد عيبًا فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في

التنزه عن ذلك العيب كعجزه، وهذا إن كان ذلك عيبًا يتعلق بفعله واختياره، وإن كان أمرًا خَلقيًا فالذم له ذم للخالق، فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها.

قال رجل لحكيم: يا قبيح الوجه! قال: ما كان خلق وجهي إليَّ فأحسنه. وإذا لم يجد العبد عيبًا في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتاب، فينبغي ألا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه. فهذه معالجات جملية.

أما التفصيل فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب. فإذا كان السبب هو الغضب فيعالج ذلك بأن يقول: إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة، إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره، وقد قال ﷺ: «**من كظم غيظًا، وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله عزَّ وجلَّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره الله من الحور ما شاء**»[1]

وأما الموافقة فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٩٩٧.

سخطه في رضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن توقر غيرك وتحقر مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى؟! وذلك لا يوجب أن نذكر المغضوب عليه بسوء، بل ينبغي أن تغضب لله تعالى أيضًا على رفقائك إذا ذكروه بالسوء، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة.

وأما عذرك كقولك إن فعلت كذا ففلان يفعله، فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به، فإن من خالف أمر الله تعالى لا يقتدى به كائنًا من كان، ولو دخل غيرك النار وأنت تقدر على ألا تدخلها لم توافقه، ولو وافقته لسفه عقلك.

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله، وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس، فتكون قد بعت ما عند الخالق يقينًا بما عند المخلوقين وهمًا، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لايغنون عنك من الله شيئًا.

وأما الغيبة لأجل الحسد فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذبًا بالحسد، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة، فكنت خاسرًا نفسك في الدنيا فصرت أيضًا خاسرًا في الآخرة لتجمع بين النكالين، فقد قصدت محسودك

فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك، فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ولا تنفعك، وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة. وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن، ولكن حسدك إبليس فأضلك، واستنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك، فتنقلب أنت مستحقًا للرحمة، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك.

وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضًا لمقت الله عزَّ وجلَّ بالغيبة.

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة فتعجب من نفسك أنت، كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا! وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك.

فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة.

كفارة الغيبة:

قال بعض العلماء: على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على فعله ليخرج به من حق الله، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته، وقال الحسن: يكفيه الاستغفار دون الاستحلال. وقال مجاهد: كفارة أكلك لحم أخيك: أن تثني عليه وتدعو له بخير. وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى صاحبك فتقول له: كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت، فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت، وقد قال رسول الله ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء. فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»[1].

(١) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له هل يبين مظلمته.

سوء الظن غيبة القلب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث**»[2].

«يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا فليجتنب كثير منه احتياطًا»[3].

إن الإنسان كثير الظنون، كثير الهواجس والشكوك، وإذا كان بعض الظن إثمًا فحري أن ينهاه خالقه عما هو أكثر من هذا البعض، عن كثير من الظن، لأن للناس حرمات، وحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى من حرمة الكعبة كما ورد عن بعض السلف، والإنسان لا يستطيع أن يميز أي ظنونه تكون إثمًا، لذا كان عليه اجتناب الكثير من الظن من الأصل.

قال النووي: «المراد النهي عن ظن السوء، قال الخطابي: هو تحقيق الظن وتصديقه دون ما يهجس في النفس فإن ذلك لا يملك.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرًا من الظن.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٤/٢٢٧.

ومراد الخطابي أن المحرم من الظن ما يستمر صاحبه عليه ويستقر في قلبه دون ما يعرض في القلب ولا يستقر فإن هذا لا يكلف به... ونقل القاضي عن سفيان أنه قال: الظن الذي يأثم به هو ما ظنه وتكلم به فإن لم يتكلم لم يأثم»[1].

تجد بعض الناس لا يكاد يرى من أحد فعلاً، أو يسمع قولاً، أو يرى مشهدًا إلا ويحمله على المحمل السيئ ويظن به ظن السوء، وذلك لخبث باطنه، ولمرض مزاجه، فهو وإن رأى أفعال الخير فإنه يأولها بشتى التأويلات السيئة لأن ذلك يوافق هواه وباطنه، فهو لا ينظر إلى الناس أو إلى الأشياء إلا بمنظار أسود فلا يرى أمامه إلا اللون الأسود والظلام، كما قال المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرًا به الماء الزلالا

وبعض هؤلاء يحقق ظنه ويصدقه ويستقر في قلبه، وقد تمر سنوات طويلة مستمرًا عليه حتى تسنح له الفرصة ليكتشف أن ظنه كان سيئًا وأن الأمر ليس كما ظن واعتقد. وتحضرني الآن في هذا المجال قصة ذلك الرجل الذي كان يمشي في السوق مع زوجته المحجبة حجابًا يشبه لباس المرأة من أهل البلد الذي يقيم فيه، فرآه عن بعد أحد أصحاب الظن السيئ فظن به وبزوجته ظنًا سيئًا، ولو علم الزوج أن هذا الإنسان سيظن به هكذا لناداه عن بعد ليقول له:

---

(١) النووي: شرح صحيح مسلم ١١٩/١٦.

على رسلك هذه زوجتي. كما فعل رسول الله ﷺ عندما كان يمشي مع زوجته صفية رضي الله عنها فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**» فقالا: سبحان الله، يا رسول الله! فقال: «**إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا**» - أو قال: «**شيئًا**»[(١)].

ولكن الزوج لم يتوقع من هذا الإنسان أن يظن به ظنًا سيئًا، وحصل أن التقى الرجلان بعد مدة طويلة وجاءت مناسبة للحديث عن مشهد السوق، فقال صاحب الظن السيئ للزوج بأنه قد ظن كذا وكذا عندما رآه مع زوجته تلك المرة، وبرر ظنه السيئ بأنه لم يعلم بزواجه...! وكأن عدم العلم بزواج إنسان يبيح للآخرين بأن يظنوا به ظنًا سيئًا بمجرد أن يروه مع امرأة قد تكون زوجته أو أخته أو أمه... إلخ! أو كأن كل مسلم متهم حتى يثبت العكس، بدلاً من أن يكون كل مسلم بريئًا حتى يثبت العكس[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها.

(٢) سئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين عن الظن السيئ، فكان مما أجاب به:
«أما الظن الذي هو بمجرد الوهم فإن ذلك لا يجوز، فلو فرضنا أن رجلاً رأى مع رجل آخر امرأة، والرجل هذا ظاهر العدالة فإنه لا يحل له أن يتهمه أن هذه المرأة أجنبية منه، لأن هذا من الظن الذي يأثم به الإنسان» جريدة المسلمون، باب فتاوى، ص: ٢، العدد ٤٦٢، ١٤١٤/٤/٢٧هـ.

فإذا كانت الفرصة قد سنحت لصاحب الظن السيئ هذا لكي يكتشف أن ظنه كان سيئًا -بعد أن مكث مدة طويلة يعتقد بأن ظنه صحيحًا، وربما حدَّث آخرين بما ظن فيكون بذلك صانعًا للإفك ومروجًا له- فقد لا تسنح الفرصة أبدًا لآخرين قد ظنوا ببعض الناس ظنًا سيئًا. فكون الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم فإنه يتسلط على كثير من الناس إلى درجة تجعل الغالب عليهم الظن السيئ، والأولوية عندهم للظن السيئ، وأول ما يظنوا بكل ما يسمعونه أو يبصرونه الظن السيئ...! قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

فوائد جليلة:

«اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير، فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء... فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٦.

الفساق، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾[1].

فلا يجوز تصديق إبليس. وإن كان ثم مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به... والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته»[2]. قال عمر رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من فِي أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً.

فأحذرك من الشيطان الذي نبهنا رسول الله ﷺ إلى أنه يجري من الإنسان مجرى الدم، وأول ما يقذف في قلبه الشر والظن السيئ. وقد لا يستطيع الإنسان تمييز الظنون التي تكون إثمًا لكنه يستطيع أن يميز في أي من الخانتين يوضع ظنه: في خانة الخير أم في خانة الشر؟ فإن رأيت من أخيك المسلم شيئًا أو سمعت منه كلامًا فوجدت نفسك تضعه في خانة الشر والسوء، فاعلم أن الشيطان هو الذي قذف ذلك في قلبك فاعمل فورًا على دفعه ورده فلا تحققه ولا تصدقه ولا تجعله يستقر في قلبك، فإن

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٢) الغزالي: الإحياء ٣/١٥٠.

لم تستطع ذلك فامنع نفسك من التكلم به حتى لا تأثم بذلك. والمطلوب من المسلم أن يحافظ على قلبه طاهرًا نقيًّا بريئًا من الشكوك والظنون السيئة تجاه إخوانه المسلمين، فكما تحب أن تبقى في نظر إخوانك المسلمين بريئًا من التهم وتبغض أن يظنوا بك الظنون السيئة، وتريد منهم كذلك أن يصونوا حقوقك، ويحفظوا كرامتك وعرضك، فكذلك هم يحبون ويريدون منك ذلك، فلتأت إذن إلى الناس الذي تحب أن يؤتى إليك، وأحب لهم ما تحب لنفسك من الخير، وابغض لهم ما تبغض لنفسك من الشر، قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه [من الخير]**».(١)

(١) واللفظ للبخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه. وما بين الحاصرتين للألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٧٣. وقال: «واعلم أن هذه الزيادة «من الخير» زيادة هامة تحدد المعنى المراد من الحديث بدقة، إذ أن كلمة (الخير) كلمة جامعة تعم الطاعات والمباحات الدنيوية والأخروية وتخرج المنهيات، لأن اسم الخير لا يتناولها، كما هو واضح. فمن كمال خلق المسلم أن يحب لأخيه المسلم من الخير مثلما يحب لنفسه، وكذلك أن يبغض لأخيه ما يبغض لنفسه من الشر، وهذا وإن لم يذكره في الحديث، فهو من مضمونه، لأن حب الشيء مستلزم لبغض نقيضه، فترك التنصيص عليه اكتفاءً كما قال الكرماني ونقله الحافظ في «فتح الباري» (١/٥٤) وأقره».

مجالس الغيبة

بلباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لقد استطاع الشيطان أن يغري الكثير من الناس الذين يظنون أنهم يحسنون صنعًا بأمرهم بالمعروف أو نهيهم عن المنكر، ولم يدركوا أنهم إنما يفعلون ذلك بالطريقة التي يحبها الشيطان ويرغِّب بها والتي قد أغراهم بممارستها، وهي درجة غير الدرجات الثلاث التي حددها رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**»[1].

لقد ضللهم الشيطان وزين لهم أعمالهم، ولم يعلموا أن ما يفعلونه ليس من الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر في شيء، وإنما هو محض الغيبة بكل علاماتها وآثارها ونتائجها، فتراهم في مجالسهم وسهراتهم يخوضون في أعراض المسلمين، ويكشفون عوراتهم، ويتفكهون بذلك وهم يظنون أنهم ينهون عن المنكر...!.

لقد تحولوا عن الوجهة الصحيحة ولم يسلكوا سبيل المؤمنين في هذا الباب، وخالفوا رسول الله ﷺ لأنهم لم ينهوا عن المنكر كما

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أمر فوقعوا في الغيبة، وانطلت عليهم حيلة الشيطان الذي ألبس الغيبة لباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأوهمهم أن ذلك لا يعد من الغيبة طالما أنه لتغيير المنكر وإزالته، ورد الضال إلى الحق.

ومع كثرة المشتغلين في هذه المهنة؛ ظن الناس أن هذه الطريقة هي فعلاً عمل مطلوب وواجب ديني عليهم كلما اجتمعوا في الزيارات...! ولكن كيف يغيرون المنكر، ويردون الضال إلى الحق والشخص المعني بكلامهم هو آخر من يعلم بهذا النهي حتى ينتهي؟! فهو ليس موجوداً معهم ولهذا فإنه آخر من يعلم، بل إنه قد لا يعلم على الإطلاق...!.

إن الذي يحز في النفس أن هؤلاء قد يكونون من الذين يحسن الناس الظن بهم ويعتقدون أنهم ملتزمون بالدين، فيرون منهم ذلك فيظنون أن هذا لا بأس به وليس من الغيبة، وإلا لما فعل ذلك هؤلاء المتدينون، وبالتالي فعليهم أن يقلدوهم في هذا الواجب الديني! فيقلدهم الناس في هذه الطريقة لأنها أقرب لهوى النفس وأيسر لها، وموافقة لرغبة الشيطان وأمنيته، لأن لأهل الدين أيضًا بواعث على الغيبة كما للعامة بواعث، وقد ذكر الغزالي ثلاثة أسباب تختص بأهل الدين، قال: «**فهي أغمضها وأدقها، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر**»[1]. وقد ذكرتها في فصل الأسباب الباعثة على الغيبة.

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ١٤٧/٣.

تجد الآن أن معظم الناس -إلا من رحم الله- كلما اجتمعوا في المجالس، وكلما زار بعضهم بعضًا كان طعامهم لحوم الناس، وشرابهم أعراضهم، وفاكهتهم عيوبهم، وحلواهم عوراتهم...! وقد يستمر التهامهم لهذه الوجبة معظم الوقت المخصص للسهرة أو الزيارة، بل إنهم قد يبدؤون بها عقب السلام مباشرة وقبل الجلوس، وإن سألتهم ماذا فعلتم؟ قالوا: أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر...!.

أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر في مجلسهم والمعنيون بأمرهم ونهيهم في منازلهم يغطون في نوم عميق لم يصلهم هذا الأمر ولا ذاك النهي! بل هؤلاء لم يكن قصدهم ذلك، وإنما قصدهم أن يعمروا المجلس أو السهرة بشيء من المتعة والتشويق وأن يملؤوا الجو بالإثارة بهذه الوجبة الشهية التي توافق شهوة النفس وهواها، ولا ننسى أن بين هؤلاء فئة المستمعين للغيبة، وهؤلاء لا تقل خطورتهم عن الذين يغتابون، إذ إن أحدهم قد يكون السبب المهيج للغيبة باستفساراته المستغربة، فينشط صاحبه بالغيبة ليزيد الحاضرين علمًا وربما هو لم يكن قد رأى المنكر بنفسه، وإنما هكذا سمع من الناس وهذا هو الغالب.

هذه هي طريقة الناس اليوم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو أنهم أمروا ونهوا أنفسهم قبل أن يأمروا وينهوا الآخرين لكان هذا أجدر وأنفع لهم، ولكن كيف تريد من الذين يشتغلون بعيوب الناس أن ينتبهوا لعيوب أنفسهم، ويقوموا بإصلاحها ما دام ذلك من

تلبيس إبليس ومدخله إلى قلوبهم؟! حتى إن بعض الناس قد يعشق ذلك؛ فما أن يرى أو حتى يسمع عن عيب في شخص ما حتى يقوم بإذاعته وإشهاره بين الناس وكأن هذا هو كل همه ومطلوبه...!.

يقول ابن الجوزي: «ومن تلبيس إبليس على المنكِر أنه إذا أنكر جلس في مجمع يصف ما فعل ويتباهى به ويسب أصحاب المنكر سب الحنق عليهم ويلعنهم، ولعل القوم قد تابوا وربما كانوا خيرًا منه لندمهم وكبره، ويندرج في ضمن حديثه كشف عورات المسلمين لأنه يُعلم من لا يعلم، والستر على المسلم واجب مهما أمكن»[1].

فإن كان هذا الكلام بحق الذي أنكر ثم جاء فجلس يصف ما فعل ويتباهى به، فما هو الكلام الذي يجب أن يقال بحق الذي لم ينكر أصلاً، وإنما جاء فجلس في مجمع يسب أصحاب المنكر ويلعنهم ويكشف عوراتهم ليظهر نفسه أمام الحاضرين بمظهر الناهي عن المنكر ليقال عنه أنه رجل صالح...؟!.

لا أعتقد أن أي عاقل فضلاً عن مؤمن يمكن أن يحكم على مثل هذا الإنسان بأنه رجل صالح، لأن ما يفعله ليس من الصلاح في شيء، بل هذا مرض وسببه الغفلة عن عيوب النفس كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ، حيث قال: «**يبصر أحدكم القذاة في عين أخيه، وينسى الجذع في عينه معترضًا**»[2].

---

(١) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ١٤٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٨٠١٣.

وهذه الصفة تنافي صفات العاقل، ومن واجباته تركها كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حبان حيث قال: «الواجب على العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه، فإن من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه، ولم يتعب قلبه، فكلما اطلع على عيب لنفسه هان عليه ما يرى مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه؛ من عاب الناس عابوه»[1].

قال الشاعر:

إذا أنت عبت الناس عابوا وأكثروا
عليك، وأبدوا منك ما كان يستر
وقد قال في بعض الأقاويل قائل
له منطق فيه كلام محبر
إذا ما ذكرت الناس فاترك عيوبهم
فلا عيب إلا دون ما منك يذكر
فإن عبت قومًا بالذي ليس فيهم
فذلك عند الله والناس أكبر

(١) ابن حبان: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١٢٥.

متى تلتمس للناس عيبًا تجد لهم
عيوبًا، ولكن الذي فيك أكثر
فسالمهم بالكف عنهم فإنهم
بعيبك من عينيك أهدى وأبصر

نعم...! إن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، ولم يجد في صدره إلا الضيق والحرج، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وهذا هو هدف الشيطان ومطلبه، فهو يريد إشغال الإنسان بعيوب الآخرين لإبعاده عن نفسه وعن إصلاحها وتزكيتها، فلو لم يشتغل بعيوب الآخرين لاشتغل بعيوبه وعمل على التخلص منها، وهذا ما يريد الشيطان أن يحول دونه، فيبعدهم ويبعدهم عن أنفسهم ويشغلهم معظم وقتهم بعيوب الناس، وبهذا الشكل لا أصلحوا الناس ولا أنفسهم أصلحوا، وهذا منتهى الجهل! قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

لكن الشيطان لا يستطيع أن يصل إلى ما يريده من الإنسان إلا إذا كان عند هذا الإنسان الاستعداد والمؤهلات التي يستغلها الشيطان ويستثمرها لحسابه، فهناك معين قوي للشيطان من نفس الإنسان وهو الهوى، ومن أتبع الهوى ضل عن سبيل الله، وإذا عرفنا أن الهوى قد يصل بالإنسان لأن يتخذه إلهًا كما قال الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[١]، فمن السهل إذن أن يوقعه الهوى في الغيبة والنميمة والاشتغال بعيوب الناس.

أما الإنسان الذي ليس عنده الاستعداد لذلك ولا يتبع الهوى طاعة لأمر ربه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٢]، وهو المؤمن الذي امتلأ قلبه بالإيمان ولم يعد هناك محل لغير ذلك، فليس للشيطان عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[٣]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤].

وأنشد الشافعي:

المرء إن كان عاقلاً ورعًا

أشغله عن عيوب غيره ورعه

كما العليل السقيم أشغله

عن وجع الناس كلهم وجعه

فإن قال قائل: إنما نفعل هذا في مجالسنا وسهراتنا لأن فاعل المنكر الذي نقصده بكلامنا ذو سلطان، أو جبار في الأرض، أو غير

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة ص، الآية: ٢٦.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة النحل، الآية: ٩٩.

ذلك ولا نستطيع مواجهته لأمره بمعروف أو نهيه عن منكر. أقول: قد تكون فعلاً صادقًا في هذا القول، ولكنك قد ضللت الطريق الصحيح ولم تتبع سنة رسول الله ﷺ في هذا الأمر، ولهذا يجب عليَّ أن أوضح لك بعض الأمور التي قد خفيت عليك:

أولاً: قال الله تعالى: ﴿**لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده...**» الحديث.

ثانيًا: إن رسول الله ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، قد شرع لنا درجات ثلاث لتغيير المنكر وليس واحدة فقط، فهو يعلم أن المؤمن قد يرى منكرًا عند صاحب سلطان ونفوذ ولا يستطيع أن يغيره بيده، ولهذا قال ﷺ: «**فإن لم يستطع فبلسانه**»، وربما لا يستطيع أيضًا أن يغيره بلسانه، ولذلك قال ﷺ: «**فإن لم يستطع فبقلبه**». وهي الدرجة الثالثة وما من مؤمن إلا يستطيعها.

فما دام الإنسان يخاف على نفسه من مواجهة إنسان آخر، فهو يستطيع أن يحدث نفسه بتغيير المنكر، ويشتغل بذكر الله عزَّ وجلَّ، فإذا فعل ذلك صار هناك فارق بينه وبين من رضي بالمنكر وتابعه، وعندها يكون قد برئ من الإثم، وهناك حديث شريف يوضح هذا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

الأمر، ففي صحيح مسلم عن أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**» قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلوا**» وفي رواية أخرى: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة**»[1].

قال النووي: «من كره بقلبه ولم يستطع إنكاراً بيد ولا لسان فقد برئ من الإثم، وأدى وظيفته، ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية، ومن رضي بفعلهم وتابعهم، فهو العاصي»[2]. قال ابن بطال: «النصيحة واجبة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره وأمن على نفسه المكروه، فإن خشي أذى فهو في سعة والله تعالى أعلم».

فإذا علمنا أن الإنكار باللسان يجب أن يكون بحضور صاحب المنكر وأمامه، وإن حصل فنعم النهي عن المنكر، ولكنه متعذر كما تقول بسبب أن صاحب المنكر قد يكون ذا سلطان، أو جباراً في الأرض أو غير ذلك، وإذا علمنا أن إنكار القلب لا يعلم به الآخرون، فما هو إذن هذا الذي تفعلونه في مجالسكم وجمعكم؟! وما هي الفائدة من هذا الإنكار ما دام صاحب المنكر بعيداً عنكم ولا يسمع إنكاركم؟!.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء فيما يخالف الشرع.

(٢) النووي: رياض الصالحين، باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فإن قلت: إنما نفعل ذلك ليعلم من لا يعلم ليكون الناس على علم ودراية بما يفعله أحدهم من منكر.

فأقول: وهل هذا من الدرجات الثلاث التي أمر بها رسول الله ﷺ لتغيير المنكر؟!

الجواب على هذا هو قطعًا: كلا. ثم ماذا يعني أن يعلم من لا يعلم؟ وهل هذا إلا هتك للأعراض وكشف لعورات المسلمين وإشاعتها بين الناس؟! أليس ذلك هو الغيبة؟ وهل هو غير ذلك؟ وهل سميت الغيبة غيبة إلا لأن الإنسان يذكر مساوئ أخيه وعيوبه في غيبته؟!

والغيبة كما نعلم حرام ولا تباح إلا لغرض صحيح في الشرع لا يمكن الوصول إليه إلا بها فيدفع ذلك إثم الغيبة، وهو ستة أمور ذكرتها في باب الغيبة، ولكن أورد هنا أحد هذه الأمور التي تناسب ما أتحدث عنه الآن وهو: الاستعانة على تغيير المنكر، ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته على إزالة المنكر: فلان يعمل كذا، فازجره عنه ونحو ذلك، ويكون مقصوده التوصل إلى إزالة المنكر، فإن لم يقصد ذلك كان حرامًا.

فهل هذا هو القصد الحقيقي وراء ما يجري في أغلب مجالس اليوم؟ هل هذا هو قصدهم من الغيبة وذكر مساوئ الغير؟ إن كان قصدهم فعلاً الاستعانة على تغيير المنكر فيخبرون من يرجون

قدرته على إزالة المنكر ليتوصلوا بذلك إلى إزالته، فليعلموا أن هذا غرض صحيح شرعي تباح الغيبة من أجل التوصل إليه، ولا إثم على من يكون هذا هو قصده.

أما إذا لم يكن هذا هو القصد، وإنما يقولون لمن هو مثلهم لا يقدر على إزالة المنكر ولا يُرجى منه ذلك -وهذا طبعًا لا يعد من الاستعانة على تغيير المنكر- ولم يكن الذي ينكرون عليه من المجاهرين بمعاصيهم أو المفاخرين بها، فليعلموا أن ما يفعلونه حرام ومن أفحش الذنوب، خاصة أنهم يغتابون أقوامًا ليسوا مجاهرين بفسقهم ولا معلنين بفجورهم ولا حتى هم أنفسهم رأوا ذلك منهم، وإنما يتلقون ذلك بألسنتهم بعضهم من بعض، ويقولون بأفواههم ما ليس لهم به علم، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى أنفسهم، ويحسبون أن ذلك هينًا فيتسامرون به ويتفكهون، وهو عند الله عظيم، ومن أعظم الموبقات والجرائم، لأنه وقوع في أعراض المسلمين، وربما كان هذا أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترضون عليه! يريدون تغيير المنكر فيقعون بما هو أنكر! فيصير أحدهم كمن يخلص غيره من النار بإحراق نفسه وهو غاية في الجهل.

ومن العجيب حقًا أن يكون بعض هؤلاء هم أنفسهم الذين يرفضون تغيير المنكر ويقولون إنه يجب ألاَّ نأثِّم المسلمين! أي؛ إذا رأينا مسلمًا يفعل منكرًا ما، أو أن منكرًا من المنكرات أو شيئًا من المحرمات قد شاع بين المسلمين فلا يجب أن ننكره! لماذا...؟! لأننا

لو أنكرنا على مسلم ما يفعله من منكر فمعنى ذلك أننا نرميه بالإثم على حد زعمهم! فلماذا هذا التناقض العجيب؟! أم أنه إذا كان الكلام على منكر هم يفعلونه وأقيمت الحجة عليهم قالوا: يجب ألاَّ نأثم المسلمين. وإذا كان الكلام على منكر يفعله غيرهم بسطوا ألسنتهم خارج أفواههم؟! قال الشافعي رحمه الله تعالى:

يا هاتكًا حرم الرجال وقاطعًا
سبل المودة عشت غير مكرَّم
لو كنت حرًا من سلالة ماجد
ما كنت هتاكًا لحرمة مسلم

أباحوا لأنفسهم الغيبة لمجرد أن في أخيهم ما يقولون، وظنوا أن هذا ليس من الغيبة، بل هي الغيبة المحرمة بعينها وليأخذوا الدليل من رسول الله ﷺ إن كانوا يحرصون فعلاً على اتباع سنته لا على اتباع خطوات الشيطان، قال رسول الله ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة**؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**»[1].

إذًا، ليس وراء الدرجات الثلاث المحددة في الحديث لتغيير

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة.

المنكر درجة أخرى، أو ليس في الحديث درجة إعلام من لا يعلم أو ما شابه ذلك، بل هناك نهي عن مثل هذا ووعيد شديد لمن يفعله

ـ كما سيأتي ذكره ـ وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[1]. ومعنى تشيع: أي يشيع خبرها.

فوائد جليلة:

إذا علمت هفوة مسلم ثم واجهته بهدف أمره بمعروف أو نهيه عن منكر، فهذا هو الواجب المندوب إليه، وفيه الأجر الجزيل وهو من علامات الإيمان، لأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، شرط أن يكون ذلك في السر بينك وبينه، حتى لا تفضحه بين الآخرين وتحرجه أمامهم، لأن في ذلك نوعًا من التوبيخ والإهانة، وربما أدى ذلك إلى أن تأخذه العزة بالإثم فيقع في منكر أقبح من الذي تنهاه عنه، كما قال الشافعي:

تعمَّدني بنصحك في انفرادي
وجنبني النصيحة في الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع
من التوبيخ لا أرضى استماعه

(١) سورة النور، الآية: ١٩.

وإن خالفتني وعصيت قولي
فلا تجزع إذا لم تعط طاعة

فإن لم تستطع ذلك بيدك ولا بلسانك لمانع ما، ولم يكن هناك واحد من الأغراض الشرعية التي تبيح لك غيبته وذكر مساوئه للغير، فما عليك عندئذ إلا أن تنكر بقلبك، لا أن تقوم بإشاعة ما يفعل عن طريق إعلام من لا يعلم فتهتك ستر أخيك فيهتك الله سترك، فهذا ليس من شيم الصالحين، ولا يفعله عاقل فضلاً عن مؤمن. قال الشاعر:

لا تلتمس من مساوئ الناس ما ستروا
فيهتك الله سترًا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا
ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا

وأحذرك من الشيطان الذي يوقعك في الغيبة المحرمة وهو مزينها لك ومهونًا أمرها عليك بأنك تفعل ذلك لتغيير المنكر غضبًا لله، في حين أنت في الحقيقة تُغضب الله تعالى عليك وتعرض نفسك لمقته وسخطه. فالغضب لله لا يوجب كشف عورات المسلمين أو تتبعها وقد قال النبي ﷺ: «**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**»(١).

---

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٨٣.

وهذا مشاهد في الواقع، إذ إن من يفعل ذلك ويُعرف منه مداومته على هذا الفعل يسلط الله تعالى عليه من يطلع على عيوبه وعوراته. فإياك أن تفعل ذلك فيسلط الله عليك بعضًا من عباده فيطلعوا على عيوبك وعوراتك، ويكفيك أن الله تعالى يفضحك أمامهم وإن لم يفضحوك هم بين الآخرين. وعن معاوية رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم**»[١].

والغضب لله لا يوجب ذكر اسم صاحب المنكر أو تعيينه، ولك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة فهو لم يكن يعين، بل كان إذا كره من إنسان شيئًا قال: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا! أو يفعلون كذا وكذا! أو «**ما بال أناس...**» أو «**ما بال أحدكم...**» أو «**ما بال العامل...**» أو «**ما بال رجال...**». فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء، لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا![٢]. والغضب لله لا يوجب أن نذكر أخانا بسوء، فالنبي ﷺ يقول: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره**» وقال: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه**»[٣].

---

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٨٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٠٥.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

قال النووي: «قوله ﷺ: «**ولا يخذله**»، أي عند أمره بالمعروف أو نهيه عن المنكر، أو عند مطالبته بحق من الحقوق، بل ينصره ويعينه ويدفع عنه الأذى ما استطاع. قوله ﷺ: «**ولا يحقره**»، أي فلا يحكم على نفسه بأنه خير من غيره، بل يحكم على غيره بأنه خير منه، أو لا يحكم بشيء، فإن العاقبة منطوية ولا يدري العبد بما يختم له، فإذا رأى صغيرًا مسلمًا حكم بأنه خير منه باعتبار أنه أخف ذنوبًا منه، وإن رأى من هو أكبر سنًا منه حكم له بالخيرية باعتبار أنه أقدم هجرة منه في الإسلام، وإن رأى كافرًا لم يقطع له بالنار، لاحتمال أنه يسلم فيموت مسلمًا.

قوله ﷺ: «**كل المسلم...**» إلخ، قال في حجة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[1]، واستدل الكرابيسي بهذا الحديث على أن الغيبة والوقوع في عرض المسلمين كبيرة، إما لدلالة الاقتران بالدم والمال، وإما للتشبيه بقوله: «**كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**». وقد توعد الله تعالى بالعذاب الأليم عليه، فقال تعالى: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[2]»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال.

(٢) سورة الحج، الآية: ٢٥.

(٣) النووي: شرح متن الأربعين النووية ١١٦.

إذًا، من واجب المسلم ستر عورات المسلمين وعدم إشاعتها، فالرسول ﷺ يقول: «**لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة**»[١]، وجاء في حديث آخر: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة**»[٢]، بل على المسلم أن يغضب لله تعالى على رفقائه إذا ذكروا أحدًا بسوء، لأنهم عصوا ربهم بأفحش الذنوب وهو الغيبة. قال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة ولكن في الكف عن أعراض الناس. ويجب عليه ألا يصدقهم لأن التصديق بالغيبة غيبة، والسامع شريك المغتاب إلا أن ينكر، وإلا أن يرد عن عرض أخيه.

فقد قال النبي ﷺ: «**من رد عن عرض أخيه، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة**»[٣]، وعن عتبان بن مالك رضي الله عنه، قال:... فقال قائل منهم: أين مالك بن الدخيشن -أو ابن الدخشم-؟ فقال بعضهم: ذاك منافق لا يحب الله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تقل ذلك، ألا تراه قد قال لا إله إلا الله، يريد بذلك وجه الله**»! قال: الله ورسوله أعلم، قال: فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين. قال رسول الله ﷺ: «**فإن الله قد حرَّم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٥٧٥.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة، باب المساجد في البيوت.

فهكذا كان رسول الله ﷺ يرد عن عرض الغائب ويكره أن يُغتاب أو أن يُذكر أحد في مجلسه بسوء، فلك فيه ﷺ أسوة حسنة، فاقتد به ورد عن أخيك الغائب كما كان يرد ﷺ.

وعندما ترد عن أخيك تخيل أنه موجود ويسمعك وقل ما تحب أن يقوله هو عنك لو كان في مكانك، فهذا ما تتمناه أنت أيضًا من أخيك أن يفعله في غيبتك وإلا -كما قال الغزالي-: «فاخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك! وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾[1]...

وقد قال مجاهد لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك، فإذن لك فيه معياران؛ أحدهما: أن تقدر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضرًا، ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به. والثاني: أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بمسمع منه ومرأى؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك، فقد قال بعضهم: ما ذُكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالسًا فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

حضر. وقال آخر: ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فيَّ. وهذا من صدق الإسلام وهو ألا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه»[١].

فائدة الفوائد:

إذا كنت في مجلس واغتيب أحدهم أمامك، أو أخذ أحدهم يخبرك عن شخص ما، ورأيت أن ذلك غيبة فرددت عنه، أو طلبت من المغتاب أن يغير الحديث، أو طلبت منه ألا يخبرك عن أحد، فغضب من ذلك أو قال لك بأنه إنما يخبرك أنت لأنه يثق بك ونحوًا من هذا الكلام، فإني أعلمك شيئًا تستطيع أن تسكن به غضبه، بل وتجعله يسر بفعلك ويشعر في نفسه بأنه يثق بك ويضمن أنك سترد عنه فيما لو اغتابه أحد أمامك ولن تسمح لأحد بذلك. إنه علاج نافع مجرب[٢] وهو:

قل له بجدية: إذا حضر عندي شخص وبدأ يغتابك ويطعن بك فماذا تريد مني أن أفعل؟ الجواب في هذه الحالة معلوم فهو سيطلب منك أن ترد وتدافع عنه ولا تسمح للمغتاب بأن يغتابه عندك، فإذا قال ذلك فقل له: ولكن يا أخي لست أنت الوحيد الذي

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٢/١٨١.

(٢) لقد أخبرني بعض من التقيت بهم من الناس بأنهم بعد قراءتهم لهذا الكتاب عملوا بنصيحتي وجربوا هذه الطريقة في مجالسهم فنفعت وأتت بالنتيجة المطلوبة التي ذكرتها هنا، ولله الفضل والمنة.

يريد مني ذلك، فكل إنسان يريد مني أن أرد عنه ومنهم (فلان) الذي تتكلم أنت عنه الآن، فهو يريد مني نفس ما تريده أنت، وإنني إنما أنفذ الآن ما يريده مثلما سأنفذ إن شاء الله ما تريده أنت أيضًا إذا اغتابك هو أو أحد غيره أمامي.

ويمكنك أن تضيف قائلاً له: يا أخي إذا كنت تريدني أن أقول لك وأنت تخبرني عن (فلان): هات زدني عنه، فاعلم أن الذي يقول لك هات زدني عن (فلان) يقول لغيرك هات زدني عن -وتذكر اسمه هو- وبعد ذلك ستجد -بإذن الله- أن غضبه قد تبدد وحل محله الإعجاب والرضا والسرور بكلامك إن لم يكن في الحال فهو بعد زمن قصير، لأنه سيدرك أن هذه هي عادتك مع الجميع، وهكذا ستتصرف فيما لو اغتابه أحد أمامك. وهذا الأمر هو مطلب جميع الناس، إذ ما من إنسان إلا ويتمنى من الآخرين أن يدافعوا عنه، وما من إنسان إلا ويحب الذي يدافع عنه في غيابه، وكونك دافعت أمامه عن شخص آخر فهو سيحبك وكأنك دافعت عنه هو، لأنه يتخيل أنك ستفعل الشيء نفسه في الدفاع عنه.

وفي هذا الأمر لطيفة...! وإليك هذا الحديث وتأمل فيه جيداً، قال رسول الله ﷺ: «**من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس**»[1]. فأنت بدفاعك عن أخيك قد أرضيت الله جل وعلا

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٦٧.

بسخط المغتاب وغضبه عليك، ولكن الله عزَّ وجلَّ قد رضي عنك وأرضاه هو عنك وكفاك مؤنته فافهم. وأسوق هنا حادثة واقعية لتكون لك مثالاً حيًا يساعدك على فهم ما قلته، ويساعدك أيضًا على معرفة استخدام هذا الدواء الناجع.

لقد أرسل لي صديق في بلد آخر يخبرني عن بعض أفعال أحد الأشخاص الذي نشترك في معرفته، وفي نهاية الرسالة قال بأنه سيخبرني في المرة القادمة عن شخص آخر وماذا فعل. فأجبته بالتالي: بالنسبة للأخبار الأخرى التي ذكرتها في رسالتك، فإنني أشعر بأنه لا دخل لي بها ولا أحب إضاعة الوقت في التورط بمشكلات الناس التي لا تنتهي والتي تؤخر الإنسان عن أهدافه، وخاصة أن الرسول ﷺ قال: «**إن الله كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**»[1]. ولهذا لا أحب من أحد أن يخبرني عن أحد شيئًا حتى لا يقع في ذنب الغيبة الذي شبهه الله عزَّ وجلَّ بأكل لحم الميت، وأيضًا حتى لا أكون شريكًا له في الغيبة لأن المستمع شريك في الغيبة.

فرد عليَّ برسالة يهاجمني فيها قائلاً: هل ترانا يا سيد عدنان نمامين إلى هذه الدرجة حتى تقول لي غيبة ونميمة وذنب ولحم ميت وإضاعة وقت و و و و هل تراني لا أعرف هذا الكلام حتى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاستقراض، باب ما ينهى عن إضاعة المال.

تتهمني بكل هذه الصفات... إنني لا أرى معنى أبدًا لهذا الكلام ولا أحب أن تخاطبني بهذا الأسلوب.

فأجبته بأربع صفحات أنصحه وأعظه وأبين له حد الغيبة وحقيقتها، وقلت له عن الكلام الذي أخبرني به عن أحد الأشخاص: كان عليك يا أخي (فلان) كمسلم أن تترك الأمر لله عزَّ وجلَّ وألا تخبر به أحدًا من الناس. وقلت له: أحببت أن أوجه لك نصيحة وللأسف لم تلق الاستحسان والقبول منك بل قلت أنك تلوم نفسك لأنك أشركتني في أمر حسبتني فيه أنني غيور على مصلحة إخواني. نعم يا أخي إنني غيور على إخواني وليس أدل على ذلك من منع أخ لي في الله من أن يقع في ما لا يرضاه الله ورسوله... وقلت أيضًا: إنني لم أوجه لك مباشرة أي تهمة، إنني أتكلم عن نفسي والحديث يخصني وكلامي كان واضحًا، إنني لا أحب لأحد أي أحد -وليس أنت فقط- أن يقع في الغيبة وتأكد تمامًا أن هذا هو قولي لأي إنسان سيكتب إليَّ ليقول عنك شيئًا، أم كنت تتوقع مني أن أقول لك هات زدني عن (فلان)؟! كلا يا أخي، إن من يقول هات زدني عن (فلان) سيقول هات زدني عن -وذكرت اسمه هو- فبماذا أجاب؟

قال: لا أدري يا أخي عدنان كيف أشكرك على رسالتك التي حوت الكثير الكثير من سداد الرأي وصدق المشاعر والله يعلم إنني سررت بها كثيرًا لكونها جاءت صادقة معبرة من أخ مسلم استطعت

من خلالها أن أفهمك وأفهم شخصك أكثر من ذي قبل. وقال أيضًا: وبإذن الله سوف يكرمك الله ويرفع من شأنك طالما إنك إنسان مسلم كريم وهذا يسعدني جدًا بل يسرني وأنا فخور بك كل الفخر. وختم رسالته قائلاً: جزاك الله عني أحسن جزاء وثبتني وإياك بقوله الثابت وجمعني بك في الجنة.

أرأيت...؟! فأين هذا من كلامه الأول...؟! وأين ذهب سخطه وغضبه...؟! إذا أردت أن تعرف الأجوبة فعد إلى حديث رسول الله ﷺ المتقدم وتأمل فيه جيدًا.

ثق تمامًا أنك إذا أسخطَّ إنسانًا ما برضا الله عزَّ وجلَّ فإن ذلك الإنسان سيرضى عنك لا محالة قصر الزمان أم طال، والعكس صحيح أيضًا، أي إذا أرضيت إنسانًا ما بسخط الله فإن ذلك الإنسان سيسخط عليك وغالبًا ما يكون ذلك في أقصر زمان...! وكم شاهدت في الواقع أشخاصًا يرضون أشخاصًا آخرين بسخط الله، بل يبيعون آخرتهم بدنيا أولئك الأشخاص الآخرين، ثم نراهم بعد فترة قصيرة قد تعرضوا للعن والطرد من قبل من أرضوهم بسخط الله أو باعوا آخرتهم من أجل دنياهم...! ويفعل الله ما يشاء.

مجالس الثرثرة

قال الله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً، أو ليصمت»[2].

اعلم رحمك الله أنه ينبغي للإنسان إذا كان في مجالس الناس أن يحفظ لسانه عن الكلام المحرم أو المكروه أو الذي فيه أدنى شبهة، والصمت عن الكلام أفضل للعبد لأن فيه النجاة والسلامة، إلا عن كلام تأكدت المصلحة والفائدة فيه، كما في قول الله: ﴿إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، والمعروف: هو كل ما أمر الله به أو ندب إليه من أعمال البر والخير، وأما ما سوى هذه المصالح التي ذكرها الله عزَّ وجلَّ فإن الكلام في كثير منه لا خير فيه والسنة الإمساك عنه، لأن الكلام المباح الذي ليس فيه

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

مصلحة ما قد يجر صاحبه إلى الكلام الحرام أو المكروه، ولذلك ليس هناك أفضل من الصمت في الحصول على السلامة.

ولكن أكثر الناس في هذا الزمن لم يعد يتحرى في أن يكون في كلامه مصلحة ما إذا أراد التكلم، ولا يفضل السكوت عن الكلام إن لم يجد لديه الكلام المفيد، ولا يتحرى الصدق في الكلمة أو العبارة عند تحدثه مع الآخرين، بل لو نظرت من حولك لوجدت أن حال أكثر الناس يتمثل في هذا المثل الذي ابتدعه واحد منهم: ليس على الكلام جمارك! أي؛ إن تكلمت فلن تدفع على كلامك رسوم جمارك!.

وهذا المثل بمعناه دعوة للإكثار من الكلام بقدر ما تشاء وبما تشاء لأنه ينفي دفع رسوم عليه، وكأن دفع المال هو الأمر الأهم في المسألة، فإذا انتفى دفع المال على الكلام وجب الإكثار منه بقدر ما تستطيع! وهذا المنطق مألوف جدًا بين الناس ويدل على ذلك مثل آخر من ابتداعهم وهو: الشيء الذي ببلاش كثِّر منه!.

هذا هو مفهوم الناس وموقفهم من أمر الكلام اليوم، ولكن هيهات...! إن لكل كلمة حسابًا، إما ثوابًا وإما عقابًا، يحسبون حساب الجمارك وينسون أن الناس يكبون في النار على وجوههم حصائد ألسنتهم، وربما لو فرض عليهم أقل رسم جمركي على كل كلمة أو على كل حديث لاقتصدوا في الكلام غاية الاقتصاد، ولعدوا الكلمات عدًا، ولابتعدوا عن الثرثرة والتدخل فيما لا يعني،

ولاقتصروا على الكلام القليل الذي يحصل به المعنى[١]، ولكن أليس هذا هو الواجب؟!.

هل من الضروري أن يفرض رسوم جمارك على الكلام حتى يمتنع الناس عن الثرثرة، والقيل والقال، وكثرة السؤال؟! ألا يمنعهم عن ذلك أن لدى كل واحد منهم رقيبًا عتيدًا يكتب كلامه وأعماله ليجازى بها يوم القيامة؟! أم أن الآخرة هي آخر شيء يمكن أن يضعوه في حسابهم أو أن يفكروا فيه ما دامت الدنيا عندهم هي أولاً وهي ثانيًا وهي ثالثًا وهي... وهي...؟! قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً﴾[٣].

إن هؤلاء إذا اجتمعوا في مجالسهم تراهم يقضون معظم الوقت في الغيبة والتفكه بأعراض الناس وكشف عيوبهم وعوراتهم والسخرية من الآخرين والخوض في الباطل... إلخ. والمعروف أن هواة الغيبة لا يسلم من لسانهم أحد، فهم جبناء لا يملكون إلا أن يطعنوا الناس في ظهورهم وينهشوا في لحومهم، فهل هؤلاء يحفظون ألسنتهم عن الكلام المحرم؟! وهل هؤلاء يفضلون الصمت على الكلام...؟! كلا... إنهم على العكس من ذلك، إنهم يطلقون

---

(١) وهم يتصرفون هكذا فعلاً وذلك -مثلاً- في المكالمات الهاتفية الدولية!.
(٢) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠-٢١.
(٣) سورة الإنسان، الآية: ٢٧.

اللسان لغاية التلعثم في الكلام وتداخل الحروف بعضها ببعض كأنهم في مسابقة: مَن يتكلم أكثر في الدقيقة الواحدة...! إن الإنسان الذي لا يحرص على السنة في الإمساك عن الكلام الذي لا طائل تحته سيجر حتمًا إلى الكلام المحرم، ولا يحرص على السلامة من ذلك إلا من رحم الله تعالى.

أنواع الكلام:

قال الإمام الغزالي: «الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة.

أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران، فلا يبقى إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء والتصنع والغيبة وتزكية النفس وفضول الكلام امتزاجًا يخفى دركه فيكون الإنسان به مخاطرًا...

وقال: الخوض في الباطل، وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن كل ذلك

مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام. وأما الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه. نعم مَن يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها»[1].

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قالوا يا رسول الله! أي الإسلام أفضل؟ قال: «**من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[2]، وفي رواية لمسلم «**أي المسلمين أفضل...**»[3]. فهل مَن يجلس في الجمع ليقول: قال وقلت وقلت وقالوا، وليقول عن المسلمين فلان يفعل كذا، وفلان عمل كذا، قد سلم المسلمون من لسانه؟! وقد لا يكفي أحدهم أن يقول ذلك عن عامة المسلمين، بل هو لا يتورع عن فعل ذلك بعلماء المسلمين وشيوخهم! ينتقدهم ويتهجم عليهم، ويرمي هذا بالكفر، وذاك بالضلال، دون وازع من ضمير أو خلق، وإن سمع قولاً أو فتوى ما لأحد الشيوخ ولم توافق مزاجه أو مذهبه رماها بالضلال!

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١١١، ١١٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل.

هكذا بكل سهولة وبساطة يعطي الأحكام على ما ليس له به علم، ولا عجب من فعله إذا علمنا أنه ليس من العلماء وإنما من الجهال المغرورين، وإذا عرف السبب بطل العجب، لأنه لا يقول ذلك إلا من هو جاهل أو متبع لهواه، فهل هذا قد سلم المسلمون من لسانه؟! وقد بسطت القول عن هذا الموضوع في مجالس الطعن.

مجالس السخرية

والاستهزاء والاحتقار

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

و«اللمز» هو الطعن باللسان، أي؛ لا يعب بعضكم بعضًا، «ولا تنابزوا بالألقاب» أي؛ يدعو بعضكم بعضًا باللقب السيئ. وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[3]. وجاء في الحديث «**الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[4]، وغمط الناس، أي؛ احتقارهم.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٢) سورة الهمزة، الآية: ١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه.

تجد بعض الناس كلما جلس في مجمع يحب أن يقوم بتسلية الحاضرين وإضحاكهم، سواء بالمزاح أو بالسخرية من الناس والاستهزاء بهم، وتراه يحكي القصص الوهمية وكل أنواع النكات الفاحشة والبذيئة، وقد لا يكفيه ذلك فيروي النكات التي تتناول أشخاصًا معينين سواء من أصحاب السلطان أو العامة، أو يحاكيهم استهزاء فيقلد مشيتهم أو صوتهم أو غير ذلك، وكل ذلك حتى يضحك الناس كيفما كان! وكأنه لم يسمع قول الرسول ﷺ: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها باسًا، يهوي بها سبعين خريفًا في النار**»[١]. وقوله ﷺ: «**ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له ويل له**»[٢].

فهو يضحك الناس بغضب الله وسخطه، ولا يكسب من ذلك سوى أنه يسقط وقاره، ويقل هيبته في النفوس، ويشجع الناس على الاستخفاف به، قال عمر رضي الله عنه: «من كثر ضحكه قلت هيبته، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه».

والضحك الكثير دليل على الغفلة عن الآخرة، قال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**»[٣]. وقد لا يكف

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٨٤.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٨٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، سورة المائدة: باب لا تسألوا عن أشياء أن تبد لكم تسؤكم.

بعض الفساق أن يجعل أصحاب السلطان أو العامة مادة للاستهزاء والسخرية والضحك، بل إنه يجعل العلماء وأئمة الدين كذلك، بل الأخطر منه أولئك الذين يدَّعون الإسلام وهم في الحقيقة يتآمرون عليه بإظهار المشايخ والعلماء في الأفلام بمظاهر تبعث على الضحك والاستهزاء بهم، والكثير من الأفلام والمسلسلات تحتوي على هذه المشاهد المضحكة ليتعود المشاهد الاستهزاء بالعلماء والمشايخ وعدم توقيرهم، فإذا تعود على ذلك لم يملك نفسه من الاستهزاء بهم فيما لو التقى أحدهم.

والاستهزاء بأئمة الدين استهزاء بالدين وبورثة النبي ﷺ، ومن يستهزأ بالدين لا يتبع تعاليمه، ومن لا يتبع تعاليمه ضل وأضل وهذا هو الهدف المنشود لأعداء الإسلام، وهذا الذي يستهزأ بعلماء الدين والمشايخ ليضحك الناس في المجالس إنما هو عون لأولئك الأعداء وجندي من جنودهم، يدري أو لا يدري. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[1] أن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[1].

المزاح:

إن المزاح قد يكون فيه بعض المطايبة والانبساط والانشراح، ولكن المداومة عليه مذمومة لأنه مضيعة للوقت واشتغال باللعب والهزل، وقد لا ينجو المازح من الوقوع في الكلام الباطل والمكروه. والمواظبة على المزاح تورث كثرة الضحك، وكثرة الضحك تميت القلب وتسقط المهابة، «فإن قلت: المماراة فيها إيذاء لأن فيها تكذيبًا للأخ والصديق أو تجهيلاً له، وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه؟ فاعلم أن المنهي عنه الافراط فيه أو المداومة عليه.

أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه، واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إني لأمزح، ولا أقول إلا حقًا**»[2]، إلا إن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقًا، وأما غيره إذا فتح

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ٢٩ - ٣٦.

(٢) صحيح الجامع الصغير، رقم: ٢٤٩٤.

باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفما كان»[١].

نعم، إن رسول الله ﷺ كان يمزح ولا يقول في مزاحه إلا حقًا فمن يقدر على هذا؟ فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، احملني، قال النبي ﷺ: «**إنا حاملوك على ولد ناقة**» قال: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال النبي ﷺ: «**وهل تلد الإبل إلا النوق**»[٢] فكان يمزح به. وقال أنس: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا. وكان لي أخ يقال له أبو عمير -قال أحسبه فطيمًا- وكان إذا جاء قال: «**يا أبا عمير، ما فعل النغير**»؟[٣]، والنغير هو فرخ العصفور كان يلعب به.

وهكذا كان مزاحه ﷺ، وكان أكثره مع النساء والصبيان معالجة لضعف قلوبهم، من غير ميل إلى هزل.

فوائد جليلة:

إن كنت تستطيع أن تكون هكذا مثل رسول الله ﷺ في المزاح فلا بأس، وإلا فدع المزاح والضحك، قال رجل لأخيه: يا أخي هل أتاك أنك وارد النار؟ قال: نعم، قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال: لا، قال: ففيم الضَّحك؟ قيل: فما رئي ضاحكًا حتى مات. ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال: إن كان

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٢٧ - ١٢٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب الكنية للصبي قبل أن يولد للرجل.

هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين؟ فإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين؟ وقال ابن عباس: من أذنب ذنبًا وهو يضحك دخل النار وهو يبكي. وقال محمد بن واسع: إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه؟ قيل: بلى، قال: فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه!.

إذًا، لا تمزح فيُستخف بك، ولا تكثر الضحك فتقل هيبتك، فالاستغراق في الضحك مذموم، والمحمود منه ما كان تبسمًا من غير صوت كما كان رسول الله ﷺ يفعل. قال محمد بن المنكدر: قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم. وقال سعيد بن العاص لابنه: يا بني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا الدنيء فيجترئ عليك. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويجر إلى القبيح، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال. وقال عمر رضي الله عنه: أتدرون لمَ سمي المزاح مزاحًا؟ قالوا: لا، قال: لأنه أزاح صاحبه عن الحق. وقيل: لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح. ويقال: المزاح مسلبة للنهى مقطعة للأصدقاء.

وأحذرك من السخرية أو الاستهزاء من علماء الدين، أو حتى من أي مسلم خاصة إذا كان ذلك من أجل تمسكه بالشريعة الإسلامية، وأحذرك من ترويج النكات والقصص عنهم بقصد

إضحاك الجلساء، لأن ذلك يجعل موقفك حرجًا وخطرًا أمام الله عزَّ وجلَّ، بل قد يترتب عليه ما لا يخطر على بالك، وعندها لن يغني جليسك عنك من الله شيئًا مقابل إضحاكك له بمثل هذه النكات والقصص، فقد أفتى العلماء بأن من يستهزأ بالشريعة الإسلامية فهو كافر.

وقد يكون الاستهزاء باللحية والحجاب أو غير ذلك...! لما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل: كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، فقال عبد الله بن عمر: أنا رأيته متعلقًا بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[1]. قال العلماء: فجعل استهزاءه بالمؤمنين استهزاء بالله وآياته ورسوله[2]. قال ابن كثير: «وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، أي؛ بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٦٥ - ٦٦.

(٢) فتوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء.

مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾، أي؛ لا يعفي عن جميعكم ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، أي؛ مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة»[1].

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/٣٨١-٣٨٢.

مجالس الإفك

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع».

إن بعض الناس إذا اجتمع مع الآخرين يحب أن يظهر بمظهر مصدر المعلومات، أو من المطلعين على الأحداث والخفايا، وذلك للفت انتباه الحاضرين والحصول على إعجابهم، ولا شك أن من يكون هذا شأنه لا بد وأن يخلط الحق بالباطل، والصدق بالكذب، والخبر الصحيح بالخبر المختلق شاء ذلك أم لم يشأ.

ونحن لم نعلم من الكتاب أو السنة أن من يطلق لسانه بالكلام سينجو من الزلل، ولم يرد أن هذه خصلة حميدة، بل الحق الذي لا لبس فيه أن هذه خصلة خبيثة. فإن كان المرء لمجرد أن يحدث بكل ما سمع كفى به كذبًا، فكيف وهو يحدث بما يعلم أنه كذب؟! والمشاهد في هذه الأيام أن الكثير من الناس يتكلف الكلام تكلفًا دون أن يطلب منه أحد ذلك، وكذلك يبالغ في تصوير الأمور حتى ولو كانت تافهة، وفيه يقول الرسول ﷺ: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا[2].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب هلك المتنطعون.

«أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم»[١].

فتجد بعضهم يخبرك بالخبر اليوم ويحدد له أسبابه مؤكداً لك أن هذا هو الحق الذي لا مجال للشك فيه، وتجده في الغد يخبرك بالخبر نفسه ولكن مع تحديد أسباب أخرى مختلفة عن التي كان لا يقبل المناقشة فيها! وهذا حتى ولو صدق في المرة الثانية فالذي لا شك فيه أنه قد سجل في ذاكرة الناس أنه كان في وقت من الأوقات يحدث بحديث كذب وكان لا يقبل الشك بصحته، وها هو يتراجع بنفسه عن ذلك الحديث لأنه كان غير صحيح أو المعلومات التي أعطاها لم تكن دقيقة، إذن فما الذي يمنع في المرة القادمة ألا يحصل الشيء نفسه مع خبر آخر؟!.

وهذا لو أمسك لسانه لما حصل ذلك ولما وقع في الإحراج مع الناس، وبسبب عدم تثبته لكل ما يقوله ويحكيه فإن الناس لن يصدقوه فيما لو جاء يحدث مرة أخرى، لأنه أصبح بنظرهم مصدراً غير موثوق به وكلامه لا يعتد به خاصة إذا كان فعله هذا قد تكرر منه أكثر من مرة.

وتجد بعض الناس لا يتراجع عن كلامه إذا ظهر خطأه وكذبه، بل ربما يضيع وقته في البحث عن أدلة ليثبت بها صحة قوله حتى ولو كانت هذه الأدلة باطلة مثل قوله، وهو يفعل ذلك ليبرهن للناس

---

(١) النووي: شرح صحيح مسلم ١٦/٢٢٠.

بأنه لم يكن كاذبًا، ولا يشعر أنه بفعله هذا يضيف إلى الكذب مذمة أخرى وهي العناد والتعصب لقوله ورأيه مع إن الاعتراف بالخطأ فضيلة، وهذا لو أمسك لسانه لما وقع فيما وقع فيه.

واعجب أكثر حين تسمع بعض الناس من هواة تصدر المجالس والظهور كمصدر للمعلومات يخبرك عن أمر وفيه دليل كذبه، كمن يقول لك أن فلانًا وفلانًا من الحكام عقدا اجتماعًا مغلقًا بمفردهما، ومع حرصه على تأكيد أن الاجتماع كان مغلقًا وسريًا فهو يخبرك بما دار فيه كلمة كلمة، فهل هناك أقبح من ذلك؟!.

أو كمن يقول لك أن اثنين من المسؤولين حين ودعا بعضهما، وحين كان كل منهما يقبل وجنة الآخر همس كل منهما في أذن الآخر بطريقة لا يسمعهما فيها أحد بكذا وكذا... ويخبرك بما همسا به ولم يسمعه منهما حتى مَن كان يقف بجانبهما كما يؤكد ذلك بنفسه!.

بل إن هذا يصبح هينًا بجانب من يطلعك على أسباب وكيفية حصول حادث سيارة مات فيه شخص كان بمفرده في السيارة، وهو لم ير الحادث إطلاقًا، ومع ذلك فهو يخبرك بما لا يعلم به في الحقيقة إلا الله تعالى وحده، كمعرفة الخواطر والأفكار، فيقول لك أن الرجل فكَّر أن يفعل كذا وفكَّر بكذا وكذا، ويأخذ في وصف دقائق الحادث الذي لا يعلم أسباب حصوله إلا الله تعالى، فهل

هناك كذب أشد من ذلك؟! بل إن هذه هي الحماقة بعينها، إذ إن الذي يقول القول وفيه دليل كذبه وهو لا يدري به؛ أحمق بلا شك.

وقال رسول الله ﷺ في رواية أخرى: «**بحسب المرء من الكذب أن يحدَّث بكل ما سمع**»[١]. قال النووي: «ومعناه يكفيه ذلك من الكذب فإنه قد استكثر منه»[٢].

ذلك لأن ما يسمعه الإنسان فيه الصدق وفيه الكذب، فإذا حدَّث بكل ما سمع حدَّث بالكذب لا محالة، وإذا حدَّث بالكذب أصبح من الكاذبين رضي بذلك أم لم يرض، ولا شك في أن من يكون هذا شأنه فإنه سيكون مروجًا ممتازًا لمنتجي الشائعات، بل ربما يكون من أحسن وكلاء التوزيع.

ولا حاجة لأن يكون بينه وبين المنتجين سابق معرفة أو اتفاقية ليصبح كذلك، بل يكفي إنتاج الشائعة وطرحها على مسامعه فتراه من أول المتحمسين لها ولتوزيعها وترويجها بالمجان، لأن من عادته التحدث بكل ما يسمع وبالتالي فالتثبت مما سمعه أمر لا يعنيه على الإطلاق ولا حاجة له للتدقيق والتمحيص في الخبر إن كان صحيحًا أم إنه مجرد إشاعة مغرضة، لأن همه الوحيد هو الحصول على البضاعة الجديدة لترويجها وتصدر المجالس بها، وغالبًا ما

---

(١) أخرجه مسلم في باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

(٢) النووي: شرح صحيح مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/٧٥.

تكون هذه المجالس من أشكاله كما يقول المثل: إن الطيور على أشكالها تقع. وأيضًا لأن كل طائر لا يطير إلا مع سربه.

فالذين يسمحون لأمثال هذا أن يروج بينهم كل ما سمعه لا بد أن يكونوا هم أيضًا مثله من هواة التحدث بكل ما يسمعون، ولهذا هم أيضًا لا يحتاجون إلى التثبت مما يخبرهم به حتى ولو كانوا يعلمون حقيقة أمره، لأن همهم تلقف الأخبار منه ليذهب كل واحد منهم فيتصدر بها مجالس أخرى، وهكذا تنتشر الشائعات الكاذبة المغرضة التي تحدث البلبلة بين الناس بفضل هؤلاء المروجين الكاذبين الذين لا يقلون خطورة -إن لم يكونوا أخطر- من مروجي المخدرات، فمروجي المخدرات يخدرون الناس، ومروجي الشائعات يثيرون الناس ويهيجونهم ويخلخلون صفوفهم فتعم الفوضى وربما يحصل الهرج والمرج والقتل بسببهم!.

واخسس برجل يدور على الناس ليشيع بينهم خبر الفاحشة، يصفها ويخبر عن تفاصيلها وكأنه كان أحد شهودها مع إنه في الحقيقة لم يرها بنفسه وإنما بلغته فقط، وهذا هو الإفك بعينه الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾[1]. وقال تعالى عن الذين يشيعون أخبار الفواحش بين الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن

(١) سورة النور، الآية: ١٥.

تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[1].

والشيء العجيب حقًا، وهو أيضًا دليل على خسة ودناءة إنسان كهذا هو أنه لا ينشر بين الناس إلا الإشاعات الخبيثة، ولا يحدِّث إلا بالأخبار السيئة والعيوب والفواحش، وأما الأخبار الطيبة والجيدة والمحاسن والطاعات فليس لها سبيل على لسانه. والحق الذي لا لبس فيه هو أن الإناء لا ينضح إلا بما فيه، وهو إنما يتكلم بما ينطوي عليه باطنه وبما يمتلأ به قلبه.

إنك تجده إذا علم أنك ممن لا يقبل أي خبر ينقل له، يستخدم أسلوبًا آخر غير أسلوب التبليغ بأن كذا وكذا قد حصل، فقد يستخدم معك أسلوب الاستفسار منك عن صحة ما يشاع فيسألك: هل سمعت شيئًا عن كذا وكذا بأنه قد حصل؟! فإذا أجبته بالنفي، أو قلت له: إنني أسمع هذا الخبر لأول مرة منك أنت الآن! ستجده يقول لك: إذن كأنك لم تسمع مني. يريد بذلك أن يلمح لك بطريقة غير مباشرة بأنه طالما أنت لم تسمع هذا الخبر قبل الآن، فربما هو مجرد إشاعة كاذبة. وقد يقابل غيرك الكثير من الناس ويفعل معهم الشيء نفسه؛ فيروج الخبر الكاذب بهذا الأسلوب وهو يقول لكل واحد منهم: كأنك لم تسمع مني.

إنك تجده يقول أن الناس قد ضلوا وهلكوا، أو يتكلم بما يُشعر

---

(١) سورة النور، الآية: ١٩.

الآخرين بأن الناس قد فسدوا وهلكوا، وهذا النوع من الكلام له آثار سيئة جدًا على الناس خاصة ذوي النفوس الضعيفة، فهو يثبِّط عزائمهم، ويدعوهم إلى الاستسلام للأمر الواقع، لأنهم يتصوروا الأمر على أنه لم يعد هناك أمل ما دام الناس قد فسدوا وهلكوا، وهذا الكلام يشبه كثيرًا الحيلة التي تُستخدم في الحروب ويستعملها كل من الطرفين المتحاربين لدى الطرف الآخر؛ وهي إشاعة روح الهزيمة بينهم، وأنهم قد هلكوا ولم يعد أمامهم أي مجال للنصر، وربما أشاعوا بينهم أيضًا أن قائدهم قد قتل أو مات، وذلك حتى يسقط في أيديهم ويسهل التغلب عليهم.

إن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، الذي لم يدع خيرًا إلا دلنا عليه ولم يدع شرًا إلا نبهنا إليه، قد نبهنا إلى هذا الأمر فقال ﷺ: «**إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم**»[1].

قال النووي رحمه الله تعالى في تفسير هذا الحديث: «روي أهلكهم على وجهين مشهورين؛ رفع الكاف وفتحها والرفع أشهر، ويؤيده أنه جاء في رواية رويناها في حلية الأولياء في ترجمة سفيان الثوري فهو من أهلكهم، قال الحميدي في الجمع بين الصحيحين: الرفع أشهر ومعناها: أشدهم هلاكًا، وأما رواية الفتح فمعناها: هو جعلهم هالكين لا أنهم هلكوا في الحقيقة، واتفق

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن قول هلك الناس.

العلماء على أن هذا الذم إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء على الناس واحتقارهم وتفضيل نفسه عليهم وتقبيح أحوالهم لأنه لا يعلم سر الله في خلقه.

قالوا: فأما مَن قال ذلك تحزنًا لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمر الدين فلا بأس عليه، كما قال: لا أعرف من أمة النبي ﷺ إلا أنهم يصلون جميعًا. هكذا فسره الإمام مالك وتابعه الناس عليه، وقال الخطابي: معناه لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساويهم ويقول فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك فإذا فعل ذلك فهو أهلكهم أي أسوأ حالاً منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم وربما أدَّاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤيته أنه خير منهم والله أعلم»[1].

إذا علم الناس أن الفساد والفواحش والمنكرات قد كثرت وشاعت؛ هان أمرها عليهم وألفوها شيئًا فشيئًا حتى يزول خوفهم منها وتصبح أمرًا عاديًا بالنسبة لهم، وبالتالي لم يعودوا يجاهدوا في إنكارها بل ربما وقعوا هم أنفسهم فيها، ولهذا الأمر جانب نفسي، فصاحب النفس الضعيفة والمؤهلة لأعمال السوء وارتكاب المعاصي قد يدفعه إلى أعمال الشر علمه بأن الناس قد فسدوا وأصبحوا أشرارًا وأن زمام الأمور قد فلت من أيدي المسؤولين،

---

(١) النووي: شرح صحيح مسلم، باب النهي عن قول هلك الناس ١٦/١٧٥.

وكلما خطر له خاطر الشر قال لنفسه: «خربانة وخربانة!». يدعو نفسه لتنفيذ ما خطر له ما دامت المسألة فوضى والأمور فالتة.

وهكذا يهون عنده عمل الشر، لأنه علم أن الكثير من الناس يفعله ويسلم من عقاب السلطة، فما المانع من أن يفعله هو أيضًا ما دامت الأمور فالتة وسيسلم هو كما سلم الآخرون؟! بل قد يذهب في تصوره إلى أن الناس ذئاب وعليه أن يكون هو أيضًا ذئبًا حتى يستطيع العيش ويقول مسليًا نفسه: إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب! ليبرر أفعاله الشريرة.

وقد يردعه ويزجره عن فعل الشر علمه بأن الناس صالحون وطيبون وشرفاء، وأن الأمور منضبطة، وأن المسؤولين بالمرصاد لكل من تسول له نفسه فعل الشر، وإن فَعَل الشر نال جزاءه وأقيم عليه الحد فلم يسلم من العقاب، فإن خطر له مثلاً خاطر القتل ردع نفسه وزجرها لأنه يعلم أنه إن قتل نفسًا قُتل بها؛ وهذا هو سر وميزة تطبيق الشريعة الإسلامية وإنزال القصاص كما أمر الله تعالى.

فإقامة الحدود من قطع عنق، أو رجم، أو قطع يد وغيره؛ تترك أثرًا في النفوس، ويكون أشده في الذين شهدوا تنفيذ القصاص، فلا ينسوا ذلك حتى إذا أمرتهم أنفسهم بالسوء تذكروا القصاص فارتدعوا، فقطع عنق واحدة تحي أعناقًا كثيرة، وهذا من

معاني الحياة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[١].

فهكذا تصان الدماء وتحفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم، ولا يكون ذلك إلا بتطبيق الشريعة الإسلامية والحكم بما أنزل الله تعالى.

إن من يرتكب المعصية إنما يرتكبها لأنها قد هانت في نفسه، وأحد أهم الأسباب الذي يجعلها تهون في نفسه هو علمه أو شعوره بأن أكثر الناس واقعون في هذه المعصية، فالإنسان يهون عنده الفعل إذا رأى الناس يفعلونه فيفعله مثلهم، ويذهب إلى كل ما يذهب إليه غالبية الناس، ولهذا فقد حذَّر الله تعالى من ذلك وبيَّن أن اتباع الأغلبية من الناس يضل عن سبيل الله، فقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٢].

وهكذا يتبين لنا كم لذلك النوع من الكلام وهو القول بأن الناس قد فسدوا وهلكوا ونحو ذلك -من آثار سيئة على نفوس الناس، وتشجيع على ارتكاب الفواحش والمعاصي والعياذ بالله تعالى، ويتبين لنا أيضًا مدى خطورة هؤلاء -الذين يروجون هذا الكلام- على المجتمع الإسلامي.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

وقول النبي ﷺ: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**» فيه الزجر عن التحدث بكل ما يسمعه المرء، وهذه هي خير الوسائل لقطع الطريق على الشائعة أو الخبر الكاذب حتى لا ينتشر.

والمؤمن لا يحدث بكل ما سمع، بل لا يهمه أن يسمع فضلاً عن التحدث، وإن حصل وسمع فإنه يتثبت مما سمعه، فإن تبين له أنه صدق صدقه وأخذ به، وإن تبين له أنه كذب كذبه وألقى به، والمؤمن حريص حتى على تجنب الاجتماع أو الإصغاء إلى من يُعرف بأنه من عادته عدم التثبت مما يقوله ويرويه لكي يحفظ سمعه وقلبه عن سماع الكذب.

سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «**الفم والفرج**»[1]. وفي الحديث عن سفيان بن عبد الله الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال: «**هذا**»[2].

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٦٣٠.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٦٥.

مجالس اللعن والطعن

عن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»**[1].

إن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وما دام الأمر كذلك فلا داعي إذن للتعجب والاستغراب من تكاثر وانتشار قساة القلوب من حولك وفي كل مكان، فقد أصبح الكثير من الناس خبراء ثرثرة في جميع أنواع الكلام ما عدا ذكر الله تعالى، ومعظم كلامهم كالسراب إذا جئته لم تجده شيئًا، فهم يقضون الساعات الطوال وهم يتكلمون بما لا طائل تحته، وهذا هو سبب انتشار قساة القلوب، وما ظنك بقلب قاس هو أبعد الناس من الله؟! وماذا تتوقع أن يصدر عنه؟.

إن هذا القلب القاسي كالبركان الثائر الذي يغلي باطنه ثم يقذف حممه في كل الاتجاهات، وهذا البركان ما هو إلا هذا الصدر الضيق الحرج المعجون بالحقد والحسد والبغض والاحتقار

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الزهد، باب حفظ اللسان. حسنه جماعة من العلماء وضعفه الألباني. والحديث من حيث المتن ليس فيه نكارة.

والسخط على عباد الله وسوء الظن بهم وغير ذلك من الأمراض الخبيثة التي تفتك بالقلوب نتيجة لبعدها عن الله وعن اتباع شريعته وسنة رسوله ﷺ، والانكباب على المعاصي والآثام.

فإن كان صاحب هذا القلب القاسي ذا سلطان، فتك بالمسلمين بيده، وعمل فيهم قتلاً وتشريدًا، وأهلك الحرث والنسل، وإن لم يكن كذلك، فتك بهم بفمه ولسانه، وعمل بلحومهم نهشًا وتقطيعًا، وهتك أستارهم كشفًا وتخريقًا، وما كل ذلك إلا رشحًا وتنفيسًا عن باطن خبيث مملوء بالغضب والغيظ يدفعه إلى التشفي والانتقام.

إن الصنف الأول من هذه القلوب، صاحب البطش والفتك باليد يكاد لا يخفى على أحد خاصة إذا كان يبطش بالجمع من الناس. أما الصنف الثاني صاحب البطش والفتك باللسان فهو اللعان والطعان، وهو لا يقل خطورة عن الصنف الأول، بل قد يستوون بالإثم، فاللعن والطعن كالقتل باليد، قال رسول الله ﷺ: «**ولعن المؤمن كقتله**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**ومن لعن مؤمنًا فهو كقتله**»[2].

إن الصنف الأول لا يحتاج إلى بسط القول فيه، لأنه ما من عاقل إلا ويعلم أن قتل النفس بغير الحق حرام ومن أكبر الكبائر

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن.

بعد الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]، وقال رسول الله ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**»[2]، وقال ﷺ: «**من قتل نفسًا معاهداً، لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً**»[3].

فإذا كان هذا في حق المعاهد من اليهود والنصارى في دار الإسلام، فتأمل أنت ماذا سيكون في حق المسلم؟! وماذا سيكون مصير قاتله؟! بل ماذا سيكون مصير من يقتل العشرات والمئات من المسلمين؟!.

أما الصنف الثاني فهو الذي يحتاج إلى بسط القول فيه، لأن الناس قد استهانوا اللعن واستباحوا الطعن وأطلقوا اللسان بهما، والمؤمن لا يكون هكذا أبدًا، لأنه ليس طعانًا أو لعانًا، ولا حتى فاحشًا أو بذيئًا، فهذه الصفات الخبيثة والأخلاق السيئة ليست من الإيمان ولا تجتمع في المؤمن مع الصفات الحميدة والأخلاق الحسنة، بل المؤمن صاحب القلب الطاهر السليم يشمئز وينفر حتى ممن يكون فيه بعض هذه الخبائث كي لا ينجس قلبه، فضلاً عن أنه لا يكون هو كذلك.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٩٣.

(٢) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٢١٢١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الديات، باب إثم من قتل ذميًا بغير جرم.

والصنف الثاني ينقسم إلى قسمين: القسم الأول هم الذين يلعنون كل شيء ويسخطون على كل الناس ولا يسلم منهم أحد؛ فهم كالنار التي تأكل الأخضر واليابس، إنها نار تتأجج في صدورهم وتُقذف منهم كما تُقذف الحمم من البركان الثائر، ولكن البركان يأتي عليه زمان يهدأ فيه، في حين هؤلاء ثائرون على الدوام. عندما يطلقون ألسنتهم باللعن والطعن وسائر الحمم ترى أعينهم حمراء يتطاير منها الشرر، وأوداجهم منتفخة، وأجسامهم ترتج وتهتز كالأرض التي أصابها الزلزال، لا يعجبهم العجب، ولا يرضون على أحد، ويرفضون كل شيء، لا لسبب وإنما لمجرد الرفض، وهذا القسم من الصنف الثاني لا يحتاج أيضًا إلى بسط القول فيه لأن أمره لا يغمض على أحد.

أما القسم الثاني الذي يحتاج إلى بسط القول فيه، لأن أمره قد يغمض على كثير من الناس، فهو ينقسم أيضًا إلى قسمين:

الأول: هم فئة تظن في أنفسها خيرًا ويحسبون أنهم على شيء، في حين هم في الحقيقة كما قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2]، وكما

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٠.

(٢) سورة الكهف، الآيتان: ١٠٣-١٠٤.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[١].

والثاني: هم في الأساس فئة صالحة، ولكن الشيطان يأتيهم من باب الخير ليستدرجهم إلى الشر، فيوقعهم فيه وهم لا يشعرون. فإذا كان القسم الأول من الصنف الثاني يلعنون كل شيء ويسخطون على جميع الناس فهؤلاء يركزون لعنهم وطعنهم وسخطهم على شخص معين، أو جماعة أو عشيرة أو قوم ما بعينهم، ولا يكاد يسلم شيء ما يخص هذا المغضوب عليه، أو هؤلاء المغضوب عليهم -من لعنهم وطعنهم؛ فإذا كان هؤلاء المغضوب عليهم من الكفار أو الفساق المعينين لما كان الأمر هينًا كما سيأتي، فكيف إذا كانوا من المسلمين؟!.

مجلس اللعن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا**»[٢] وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يكون اللعانون شفعاء، ولا شهداء يوم القيامة**»[٣].

قال النووي في شرح صحيح مسلم: «فيه الزجر عن اللعن وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة، لأن اللعنة في

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى، وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضًا وكالجسد الواحد وأن المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى فهو من نهاية المقاطعة والتدابر وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «**لعن المؤمن كقتله**» لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا وهذا يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى، وقيل معنى لعن المؤمن كقتله في الإثم وهذا أظهر.

وأما قوله ﷺ أنهم لا يكونون شفعاء ولا شهداء فمعناه: لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار، ولا شهداء: فيه ثلاثة أقوال أصحها وأشهرها: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات. والثاني: لا يكونون شهداء في الدنيا، أي؛ لا تقبل شهادتهم لفسقهم. والثالث: لا يرزقون الشهادة وهي القتل في سبيل الله. وإنما قال ﷺ لا ينبغي لصديق أن يكون لعانًا ولا يكون اللعانون شفعاء بصيغة التكثير ولم يقل لاعنًا واللاعنون، لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كثر من اللعن لا لمرة ونحوها، ولأنه يخرج منه أيضًا اللعن المباح وهو الذي ورد الشرع به وهو: لعنة الله على الظالمين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الواصلة والواشمة وشارب الخمر وآكل

الربا وموكله وكاتبه وشاهديه والمصورين ومن انتمى إلى غير أبيه وتولى غير مواليه وغيَّر منار الأرض وغيرهم ممن هو مشهور في الأحاديث الصحيحة»[١].

وقال أيضًا: «واتفق العلماء على تحريم اللعن، فإنه في اللغة الإبعاد والطرد. وفي الشرع: الإبعاد من رحمة الله تعالى. فلا يجوز أن يبعد من رحمة الله تعالى من لا يعرف حاله وخاتمة أمره معرفة قطعية، فلهذا قالوا: لا يجوز لعن أحد بعينه مسلمًا كان أو كافرًا أو دابة، إلا من علمنا بنص شرعي أنه مات على الكفر، أو يموت عليه: كأبي جهل وإبليس.

وأما اللعن بالوصف فليس بحرام كلعن الواصلة، والمستوصلة، والواشمة، والمستوشمة، وآكل الربا وموكله، والمصورين، والظالمين والفاسقين، والكافرين... وغير ذلك مما جاءت النصوص الشرعية بإطلاقه على الأوصاف لا على الأعيان. والله أعلم»[٢].

إن من الناس من يفتأ يلعن ويطعن أناسًا بعينهم؛ إما شخص، أو عشيرة، أو أهل بلد... إلخ. ولا يردعه عن ذلك أن يكون هؤلاء من المسلمين الذين يشهدون بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيمون الصلاة وسائر الفرائض التي فرضها الله تعالى، وإن

---

(١) النووي: شرح صحيح مسلم، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها ١٤٨/١٤٩.

(٢) النووي: شرح صحيح مسلم، باب نقصان الإيمان بنقص الطاعات ٦٧/٢.

بحثت عن السبب في هذا اللعن تجد أن العلة ليست في هؤلاء الناس بقدر ما هي في اللعان نفسه، فتجد أن في قلبه شيئًا تجاههم، لذا فهو يراهم ضالين رغم وجود الصلاح، ويرى نفسه أو عشيرته أو أهل بلده صالحين رغم وجود الضلال، وهذا الشيء يجعله يراهم على غير حقيقتهم أو على الأقل يجعله لا يرى منهم إلا اللون الأسود، فمهما نظر إليهم لم ير إلا السواد والظلام، مثل الذي يضع على عينيه نظارات سوداء فلا يرى الأشياء إلا بهذا اللون رغم وجود البياض، كما قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مر مريض

يجد مرًا به الماء الزلالا

فإن قلت: وما هو هذا الشيء الذي يطمس الحقيقة ويجعل الإنسان يرى الأبيض أسود والأسود أبيض؟.

أقول: هناك عدة أسباب تؤدي إلى ذلك ومنها: الهوى والتقليد. والتعصب لما هو عليه ينشأ عنه الغضب والغيظ من كل من يخالفه، وينتج عن الغضب الحقد، والحقد يثمر الحسد... وهكذا تجد أن العلة في الغاضب وليست في المغضوب عليه، ومما يؤكد ذلك أنك لو نصحته بترك اللعن والطعن بأولئك الناس واستبدال ذلك بالإيمانيات والأحاديث المفيدة، قد تجده يستجيب لذلك وينتقل إلى الأحاديث الدينية، ولكن بما أن العلة ما زالت باقية فسوف تجد أن

اللعن والطعن ينتقل معه ليصبح في كل شيء ديني يخص نفس أولئك المغضوب عليهم منه.

هذا هو فقط الاستبدال الذي يحصل، إذ كيف تريد من صاحب الصدر الضيق الحرج المظلم أن يستبدل مجلس اللعن بمجلس الإيمان وهو الذي يحتاج إلى الصدر الواسع النوراني المطمئن؟! فالقلب إذا امتلأ حقدًا وحسدًا على إنسان ما لا ينفك صاحبه يلعنه ويطعن به كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فكيف تريد من هذا أن يمنع غضبه وحقده من أن يترشح منه وهو في غاية الصعوبة؟!.

فالعلة هي العلة وما دمت قد طلبت منه أن ينتقل إلى الأحاديث الدينية، فهذه سوف تكون له فرصة الآن لأن يصب لعنه وطعنه على كل ما يتعلق بأولئك الناس الذين يحقد عليهم، حتى ولو حاول عدم التعرض لهم فإنه لن يستطيع لأن باطنه يدفعه بقوة للتعرض لهم، ولذلك فهو أول ما يسمع أي كلمة يجعلها سببًا لإطلاق لسانه بالتعرض لهم، وتجد الكلام يندفع من فمه كالسيل الجارف لا تستطيع وقفه، ولو حاولت الكلام فهو لن يسكت حتى ينتهي فإذا انتهى استراح، كمن يريد أن يقيئ ولا راحة له إلا بعد أن يقيئ كل ما في معدته، فهو لا يستطيع عن اللعن والطعن فكاكًا لأن الحقد والحسد قد أعمى بصره وقلبه فكان همه وشغله الشاغل هو التعبير عن ذلك باللعن والطعن والشتم، وإذا استولى هذا الصنف من الحقد والحسد على القلب يصعب إزالته كما قيل:

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد «قال بعض الحكماء: الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحسود ما يلقى. وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها. وقال أعرابي: ما رأيت ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه»[١].

ومن ثمرات الحسد أن يتكلم الحاسد فيمن يحسده بما لا يحل له من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره، وأيضًا أن يحاكيه استهزاء به وسخرية منه، بل قد يدفعه الحسد ليس فقط إلى أن يحاكيه بما يُذم عليه بل إلى ما يُمدح عليه من أمور الطاعات وغير ذلك من الأفعال المحمودة، والمحاكاة أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم، عن عائشة رضي الله عنها قالت: حكيت للنبي ﷺ رجلاً فقال: «**ما يسرني أني حكيت رجلاً وإن لي كذا وكذا**»[٢].

واللعن حرام ليس فقط على الإنسان، وإنما أيضًا على الحيوان والجماد والريح وكل ذلك مذموم، فعن عمران بن حصين قال: بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وامرأة من الأنصار على ناقة، فضجرت، فلعنتها، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**خذوا ما**

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٨٩.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٠٣٤.

عليها ودعوها، فإنها ملعونة» قال عمران: فكأني أراها الآن تمشي في الناس ما يعرض لها أحد»[١].

وعن ابن عباس: أن رجلاً لعن الريح ـ وفي لفظٍ ـ: أن رجلاً نازعته الريح رداءه، على عهد النبي، فلعنها، فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنها فإنها مأمورة**»[٢]، وعن جابر بن سُلَيم، قال: قلت للنبي ﷺ: اعهد إليَّ، قال: «**لا تسُبَّنَّ أحداً**». قال: فما سببت بعده حرًا ولا عبدًا ولا بعيرًا ولا شاة[٣].

فإذا عرفت هذا في الحيوان وغيره من المخلوقات فهو في الإنسان أولى، قال الغزالي: «اللعن للشخص المعين، وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله... والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعًا فتجوز لعنته كقولك: فرعون لعنه الله، وأبو جهل لعنه الله، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعًا. وأما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله... فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربًا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونًا؟... وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلاً عن غيره... وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها. والمؤمن ليس بلعان فلا

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤١٠٢.

(٣) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٤٤٢.

ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين، فالاشتغال بذكر الله أولى فإن لم يكن ففي السكوت سلامة... قال ابن عمر: إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان»[١].

وقال النووي: «اعلم أن لعن المسلم المصون حرام بإجماع المسلمين، ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة كقولك: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود والنصارى، ولعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك»[٢].

واعجب حين تسمع شخصًا يلعن أكثر من إنسان واحد في المجلس نفسه، واعجب أكثر حين تعلم أن لعنه لم يكن لأي سبب متعلق بالملعون وإنما باللاعن كما هو الحال عندما يرى شخصًا لا يستمزجه أو لا يعجبه شكله يسرع إلى لعنه قائلاً: لعنة الله عليه، أو لعن الله أباه، أو أمه، أو والديه، أو جده، أو عمه... إلخ.

مجلس الطعن:

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾[٣].

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/١٢٣-١٣٦.

(٢) النووي: الأذكار ٣١٤-٣١٥.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

قال رسول الله ﷺ: «**ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء**»[١].

ليس من خلق المؤمن الطعن بالناس وإطلاق لسانه باللعن أو الفحش أو البذاءة، فهذه صفات تنافي صفات الإيمان؛ والمؤمن حريص دائمًا على طهارة لسانه حتى إنه ليتحاشى أن يعبِّر عن بعض الأمور التي تخفى مثل الجماع بألفاظ فاحشة كما هو شأن أهل الفساد، ويكني عنها بدلاً من ذلك، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يحب الفاحش المتفحش**»[٢]، وفي الحديث: «**فإن الله تعالى ليبغض الفاحش البذيء**»[٣]. وعندما قال اليهود للنبي ﷺ: السام عليك يا أبا القاسم، قالت لهم عائشة رضي الله عنها: بل عليكم السام والذام. ومع إنهم يستحقون أكثر مما ردت عليهم إلا أن النبي ﷺ قال لها: «**يا عائشة لا تكوني فاحشة**»[٤].

فالفحش والتفحش ليسا من الإسلام في شيء، ولذلك فإن المسلم حريص على ألا يدخل إلى الإسلام ما ليس منه، وإن كان هذا في الفحش فإنه في الطعن أولى. فالمؤمن ليس من عادته الطعن بالناس كما يفعل البعض ذلك لأدنى شبهة أو حتى دون

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٦١٠.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٠٨.

(٣) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٦٢٨.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم.

شبهة، وقد لا يسلم منهم حتى علماء الدين والأئمة! وغالبًا ما يكون منهم ذلك لسوء ظنهم أو لفساد مزاجهم أو لاتباعهم الأهواء الضالة أو التقليد الأعمى والتعصب وغير ذلك من الأسباب التي لا تعمي الأبصار فقط وإنما تعمي القلوب التي في الصدور، ومن يكن شأنه هكذا فهو لن يجد الماء الزلالا مرًا فقط بل سيجد العسل علقمًا!.

الطعن بالعلماء والشيوخ:

لقد ذكرت من قبل أن من الناس من لا يكتفي بالطعن بالعامة من الذين يغضب عليهم بل يذهب حتى إلى الطعن بعلماء الدين والأئمة وكل ما يخص أولئك الناس، مع ما في ذلك من خطورة، بل هو في غاية الخطورة لأن الطعن بالعلماء المسلمين الذين يتبعون السنة النبوية المطهرة وينهجون فيها نهج السلف الصالح رضوان الله عليهم -طعن بورثة النبي ﷺ، والوقيعة في أهل العلم لا سيما أكابرهم من كبائر الذنوب، وقد روى الخطيب البغدادي، رحمه الله تعالى، بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «من آذى فقيهًا واحدًا فقد آذى رسول الله ﷺ، ومن آذى رسول الله ﷺ فقد آذى الله تعالى»[1]، وقد قال بعض العلماء الماضين: لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أعراض منتقصيهم معلومة، ومن وقع فيهم بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب، ﴿ فَلْيَحْذَرِ

(١) رواه الخطيب البغدادي في كتاب «الجامع في آداب الراوي والسامع».

﴿الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

فما الذي يدفعهم إلى الطعن بالعلماء خاصة إذا كان بعض هؤلاء العلماء من الأموات؟! ألم يبلغهم قول سيدنا رسول الله ﷺ: «**لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا**»[٢]، وغير ذلك مما جاء من التحذير من الوقيعة في أعراض آحاد الناس فكيف في أكابر العلماء؟!.

كيف يسوغ لهم أن يؤذوا المؤمنين بغير حق؟! والله تعالى يقول: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾[٣]، وقال النبي ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[٤].

قال العلامة صالح بن عمر البلقيني: توقير العلماء والكبار وأهل الفضل متعين، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٥]. وصح أن رسول الله ﷺ قال: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف شرف كبيرنا**»[٦].

---

(١) سورة النور، الآية: ٦٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما ينهى من سب الأموات.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٥٨.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٦) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٥٦٦.

كيف يسوغ لهم أن يقدموا على رمي عالم بفسق أو كفر ولم يكن فيه ذلك؟ والنبي ﷺ يقول: «**لا يرمي رجل رجلاً بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**»[١]، وقال ﷺ: «**فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه**»[٢]، فهل هؤلاء يؤتون إلى الناس الذي يحبون أن يؤتى إليهم؟.

إن الذين يوزعون الاتهامات الباطلة والطعن بالعلماء الأجلاء، والحكم على هذا العالم بأنه ضال أو صاحب ضلالات، وذاك فاسق... إلخ قطعًا لا يؤتون إلى الناس الذي يحبون أن يؤتى إليهم وما ذلك إلا لأنهم جهلاء، لأن ما يفعلونه من طعن ولعن وسب لا يفعله العقلاء من الناس فضلاً عن العلماء، بل يفعله المغرورون الجهلة أو المعاندون المقلدون لأمثالهم؛ وقد يكون ذنب هؤلاء العلماء الوحيد ـ من وجهة نظر الطعانين ـ هو أنهم أئمة أو شيوخ لجماعة أو قوم أو أهل بلد محقود عليهم أو مطعون بهم من قبل هؤلاء؛ فيكون الطعن بهم تبعًا لذلك، فهؤلاء يريدون أن يطعنوا بكل شيء يخص القوم المطعون بهم فيدخل في ذلك العلماء والشيوخ والهيئات الدينية وغير ذلك مما يمت بأدنى صلة بالقوم. وقد يدفعهم الحقد إلى البهتان والافتراء فيقولون عن ألسنتهم ما لم يقولوا، أو يقولون

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول.

إنهم يفعلون كذا وهم لا يفعلون، أو يقولون إنهم يفتون بكذا وهم لا يفتون...!.

إن اتباع الأهواء الضالة يدفع بالكثير من الناس إلى هذا العمل، وما دام الإنسان يصل به الأمر إلى أن يتخذ الهوى إلهًا له كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[1]، فمن الأولى أن يقود الهوى هذا الإنسان الذي ختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة إلى التعصب للأهل والعشيرة وأهل البلد فيرى شرارهم خيارًا ولو كانوا في الضلال المبين، وخيار غيرهم شرارًا ولو كانوا على الهدى المبين، ومن ذلك التعصب للمذهب أو الحزب والحقد على المذاهب أو الأحزاب الأخرى وعلى أتباعهما، وكما قال تعالى: ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[2].

ذُكر أن بعضهم قال لإبليس: أرني كيف تغلب ابن آدم. فقال: آخذه عند الغضب وعند الهوى. قال الشاعر:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى

إلى كل ما فيه عليك مقال

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٣.

وقال آخر:

إذا مـــا رأيت المرء يقـــتـــاده الهـوى

فـــقـــد ثكلتـــه عند ذاك ثواكله

وقال الحسن رضي الله عنه: بلغنا أن إبليس قال: سولت لأمة محمد ﷺ المعاصي فقصموا ظهري بالاستغفار، فسولت لهم ذنوبًا لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء.

نعم...! كيف سيستغفرون من شيء لا يعدُّونه ذنبًا أو معصية، بل يظنون أن التعصب للأهل والمذهب وسائر الأهواء هو الحق الذي يجب أن يدافعوا عنه ويقاتلوا من أجله الناس؟ ولكن لو كان هذا فعلاً هو الحق كما يظنون فلماذا يلومون غيرهم إذا تعصبوا مثل تعصبهم؟! أم أن تعصبهم هو الحق وكل تعصب غيره هو الباطل؟! بل ليس ذلك إلا من الأهواء وهي مداخل الشيطان إلى الإنسان، فمداخل الشيطان إلى العبد صفاته الذميمة، فمهما رأيت إنسانًا يلعن ويطعن ويسيء الظن بالمسلمين طلبًا للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن ذلك خبثه يترشح منه، وغالبًا ما يكون اللعان والطعان سيئ الظن بالناس، فسوء الظن صفة تكاد لا تنفك عنه وهي باعث قوي للعن والطعن.

إنك تجد هؤلاء قد نصبوا أنفسهم حكامًا على العلماء والمجتهدين المخلصين، فإذا صدر عنهم فتوى شرعية ما تصدوا لها

وقالوا: هذا ضلال وفساد، هذا فسق وكفر... إلخ، هكذا بكل بساطة يحكمون على ما ليس لهم به علم، ولو كانوا من العلماء أو المتصدرين للفتوى لهان الأمر ولما لزم هذا الكلام، إذ إن من واجب العلماء أن يبينوا للناس الحق ويحذروا من البدع، ومع ذلك فهم لا يصفون الفتوى الخطأ إذا صدرت عن عالم فاضل مثلما يصفها الجهلة الحاقدون، بل غاية ما يقولون هو ما قاله أحد العلماء عندما سئل عن صحة إحدى الفتاوى فقال: خطأ. فلم يطعن بصاحب الفتوى ولم ينطق بأي كلمة من كلام الطعن واللعن.

فكل عالم يصيب ويخطأ، وليس أحد معصومًا من الخطأ إلا الرسول ﷺ، وقد قال ﷺ: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر**»[1]. فهذا الحديث صريح في أن المجتهد الذي توفرت فيه أدوات الاجتهاد مأجور في الحالتين، وأن الله عزَّ وجلَّ يعطي هذا المجتهد أجر على اجتهاده ولو أخطأ، في حين تجد هؤلاء الجهلة يريدون أن يرمونه بالضلال أو الكفر! فهل هؤلاء قد سلم المسلمون من ألسنتهم؟.

فإذا كان هذا الكلام على اعتبار أن العالم قد أخطأ فهو أولى إذا كان قد أصاب. في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها**

(١) أخرجه البخاري في كتاب الاعتصام، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ.

يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب»[١]، فهل مَن يرمي هذا وذاك بالضلال والفسق أو الكفر قد تبين في كلمته أنها خير أم لا؟!.

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون ما المفلس**»، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»[٢].

وقد جاء في الحديث المتفق عليه عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[٣]، والسب: وهو الشتم والتكلم في عرض الإنسان بما يعيبه.

فما أشنعه من عيب قذف المسلم بالضلال أو الفسق وما شابه ذلك، وإن كان هذا القذف في أئمة الدين فهو يصبح أشنع وأفظع إذا علمنا أن القاذف يحسب نفسه من المسلمين، مع إن من واجب المسلم أن يفرح أنه ما زال هناك علماء ومجتهدون ويجب عليه أن يدافع عنهم ويذب عنهم لأنهم أئمته في الدين وبغيرهم يعم الضلال

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد، باب حفظ اللسان.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب ما ينهى عن السباب واللعن.

والفساد، ولهذا يقوم المتآمرون على الإسلام بتشكيك المسلمين في كل ما يعدُّ مرجعًا دينيًا لهم ومن ذلك العلماء، حتى إذا وقع الشك بالعلماء وزالت الثقة بهم ابتعد الناس عن الدين، وبقدر ابتعادهم عن الدين يقتربون من الكفر والضلال لأنهم ابتعدوا عن حفظة الدين.

ولهذا فإن من يرمي العلماء بالضلال أو يتهمهم بإضلال الناس فإنه يعمل من حيث لا يدري على هدم ثقة الناس -وخاصة ضعيفي الإيمان- بالعلماء الذين هم ورثة النبي ﷺ، فلا يرجعون إليهم في الأمور الضرورية التي تحتاج إلى الفتوى والنصح والإرشاد، فيستغل الشيطان هذه الفرصة فيقوم هو بنصحهم وإرشادهم إلى ما يكون عاقبته سوء الدار وبئس المصير.

التقليد الأعمى سبب للطعن بالعلماء:

هناك أسباب متعددة تجعل بعض الناس يكرهون علماء كبارًا في الدين، وقد ذكرت أنه قد يكون كرهه لهم تبعًا لكرهه لجماعة أو قوم أو أهل بلد يأخذون بأقوال وفتاوى أحد هؤلاء العلماء، وتجده ينفر حتى من سماع اسم هذا العالم، بل إنه يكره حتى كل من تخرج من مدرسته ولو كانوا هم أيضًا من العلماء الأكابر.

وهناك سبب آخر وهو التقليد الأعمى، وهذا السبب من أقوى الأسباب التي تجعل الكثير من الناس يقعون في العلماء، وقد يكون

هذا السبب والذي قبله مجتمعين في بعض الناس فيتضاعف كرهه لهؤلاء العلماء.

والتقليد هو أن يتبع الإنسان مذهبًا معينًا دون غيره من المذاهب الأربعة ويقلده في كل ما جاء به تقليداً أعمى يجعله لا يترك أي شيء منه ولو ثبت بالحديث الصحيح أنه خطأ والصواب في أحد المذاهب الأخرى، ويتعصب لمذهبه تعصبًا شديداً، ذلك لأن هواه قد أصبح مع ذلك المذهب، فإذا جاءه حديث صحيح عن رسول الله ﷺ يثبت خطأ مذهبه في مسألة من المسائل يرفضه ولا يتبعه ويفضل اتباع إمام مذهبه على اتباع رسول الله ﷺ وهو القائل: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به**»[1]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا**﴾[2].

قد يغيب عن فكر هذا المقلد أن الرسول ﷺ هو وحده المعصوم ومن بعده لم يجعل الله عزَّ وجلَّ الاجتهاد المبني على الكتاب والسنة حكرًا لأحد دون أحد، أو عصر دون عصر، بل باب الاجتهاد مفتوح إلى ما شاء الله، ولا يزال الناس بحاجة إلى الاجتهاد ما دامت الحياة في تطور وتغير، لأنه تطرأ أمور جديدة لم تكن في الزمن الذي قبله وهكذا إلى ما شاء الله تعالى، ولكن أمثال هذا المقلد

---

(١) قال النووي في أربعينه: رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦١.

والمتعصبين للمذاهب هم الذين وضعوا السدود في وجه الاجتهاد حتى إذا ظهر مجتهد أنكروا عليه لأنهم لا يريدون من أحد الخروج عن المذاهب المعروفة، وكأن الخروج عنها خروج عن الدين!.

وليس الأمر كذلك، وإنما الناس في حاجة مستمرة إلى علماء مجتهدين ليفتوهم في المسائل المستجدة، ولكن هؤلاء المتعصبين لا يستطيعون حتى تخيل أن يأتي أحد ويسير على الطريق نفسه الذي سار عليه الأئمة الأربعة، حتى إذا أتى من يسير على ذلك الطريق استفظعوا الأمر، واستهجنوه وأخذوا في التهجم عليه وانتقاده والطعن به، بل حتى والافتراء عليه وبهتانه بأن ينسبوا إليه ما لم يقل.

إن كل إمام وكل مجتهد يصيب ويخطأ وهو مأجور ومثاب في الحالتين، وإن أحدًا من أئمة المذاهب الأربعة -رحمهم الله جميعًا- ليس معصومًا، ولا يوجد آية في القرآن أو حديث صحيح عن النبي ﷺ، يلزم المسلم باتباع مذهب من المذاهب الأربعة بعينه دون المذاهب الأخرى، بل الله عزَّ وجلَّ أمر باتباع الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[2]، وإلا لسألنا على أي من

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

(٢) سورة التغابن، الآية: ١٢.

المذاهب كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، أو التابعين، بل على أي مذهب كان أئمة المذاهب أنفسهم قبل أن تكون مذاهبهم؟!.

إذًا، فالذي ساغ لأحد من الناس أن يتبع مذهبًا بعينه ساغ أيضًا لغيره أن يتبع مذهبًا غير مذهبه، ولا يجوز للمقلد أن ينظر إلى مقلدي المذاهب الأخرى على أنهم ضالون أو على أنهم على مذهب باطل وأنه هو على المذهب الحق، بل الإتباع الحق هو كما قال الإمام أحمد -رحمه الله تعالى-: «الإتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه، ثم هو من بعد مع التابعين مخير. وقال أحمد أيضًا: لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا»[١].

ولهذا يجوز لكل عالم أن يأخذ من حيث أخذ الأئمة الأربعة. وقد قال الإمام أحمد: «من قلة فقه الرجل أن يقلد دينه الرجال. قال ابن القيم: ولأجل هذا لم يؤلف الإمام أحمد كتابًا في الفقه، وإنما دوَّن أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته وغير ذلك»[٢].

ما من واحد من الأئمة الأربعة دعا إلى تقليده تقليدًا مطلقًا، بل كانوا ينبهون دائمًا على أنهم بشر يصيبون ويخطؤون وليسوا

---

(١) الفلاني: إيقاظ همم أولي الأبصار ١١٣.

(٢) المرجع السابق والصفحة.

بمعصومين، وكل واحد منهم كان يدعو إلى اتباع النبي ﷺ في كل شيء وأن يتركوا قولهم لقوله ﷺ، لأنه ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ، كما كان يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى، وقال الشافعي: إذا صح الحديث فهو مذهبي. وقال أبو حنيفة: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه. وفي رواية: حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، زاد في رواية: فإننا بشر نقول القول اليوم، ونرجع عنه غدًا[1].

إن المقلد لمذهب ما تقليدًا مطلقًا هو في الحقيقة مخالف لإمام مذهبه الذي يدعوه أن يضرب قوله بعرض الحائط إذا صح عن النبي ﷺ غير الذي يقول.

والخلاصة أنه لا يجوز لمسلم أن يرمي عالمًا بفسق أو كفر أو ضلال ولا حتى بفتوى من فتاويه، فهذا لا يرضى الله تعالى به، وإذا كان الله عزَّ وجلَّ يعطي المجتهد أجرًا على اجتهاده، فحري بالمسلم ألا يتعدى هذه الحدود ويخاطر بنفسه، والذي يريد أن يحكم على عالم أو فتوى لا بد أن يكون من أهل العلم والفتوى، والذي يريد أن ينتقد أو يناظر أحدًا من العلماء لا بد له من أن يكون عالمًا مثله على الأقل إن لم يكن أرفع منه درجة، فمن لم يكن طبيبًا كيف

---

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم، وإيقاظ همم أولي الأبصار للفلاني، وصفة صلاة النبي ﷺ للألباني.

يستطيع أن يناظر طبيبًا في علم الطب ويناقشه في الأمراض والأدوية وأسمائها وتركيبها وما شابه ذلك؟!.

ولو فرضنا أن أحدًا فعل ذلك وهو ليس بطبيب لقلنا: إنه مجنون، أو جاهل على الأقل، بل الجاهل مع جهله لا يقبل أن يناظر طبيبًا في علم الطب أو يحكم على عمله لأنه يعلم أنه ليس له حيلة في ذلك، وإذا كان الإنسان ليس من العلماء الذين يستطيعون أن يميزوا الصواب من الخطأ، فالسنة الإمساك عن الكلام وذلك أسلم له ولدينه، والسلامة لا يعدلها شيء، والأفضل لهذا الإنسان أن يشتغل بنفسه ويعمل على إصلاحها وتزكيتها وصيانة لسانه من الزلات والمداومة على طاعة الله وذكره.

ويجب ألا ننسى قبل الحكم على أي شيء أن الشيطان موجود ومهمته أن يزين للمرء عمله، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[1]. حتى إن الرجل ليعمل المعصية وهو يظنها طاعة، ويقول الباطل ويظنه الحق، ولو عرف الحق لعرف أهله، وما أحسن قول علي رضي الله عنه: «اعرف الرجال بالحق، ولا تعرف الحق بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله».

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

فائدة جليلة:

إن العلماء هم مراجع للدين وصدورهم بيوت نيرات أودع فيها القرآن والسنة، ولأن أغلب الناس اليوم بعيدون عنهما فلذلك هم يحتاجون إلى العلماء لاستخراج ما يلزمهم من القرآن والسنة فيما يخص أمورهم الدينية والدنيوية، فإذا كان هؤلاء الناس بعيدين عن قراءة القرآن ومعرفة السنة وفوق ذلك هجروا العلماء ولم يستنصحوهم؛ فإن هجرهم للعلماء هو أيضًا هجر للقرآن والسنة، وهدم الثقة بعلماء الدين هو هدم لمراجع المسلمين وهدم لورثة النبي ﷺ، وعندما لا يكون هناك مرجع للمسلمين فعندها يكون الضياع والضلال والجهل.

فقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يُبقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهَّالاً، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[1]، وهذا الحديث يشير إلى أن العلم محفوظ في صدور العلماء حتى إذا ماتوا مات العلم معهم، وكذلك التشكيك وهدم الثقة بهم هو أيضًا بمثابة إماتتهم وإماتة العلم معهم وهم أحياء، وأعداء الإسلام ما برحوا يظهرون العلماء والشيوخ بالأفلام والمسلسلات بمظاهر تبعث المشاهد على الضحك عليهم والاستهزاء

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم.

بهم حتى إذا قابلهم بمكان ما لم يجد في صدره توقيرًا واحترامًا لهم.

إن في توقير العلماء توقيرًا واحترامًا للدين وحفظًا له لأنهم الدالون إليه، وفي الاستهزاء بهم استهزاء بالدين وتضييع له، وإذا ذهب العلماء، ذهب العلم، وإذا ذهب العلم، عم الجهل والضلال والفساد والبغي، فلا أدري لماذا يتطوع بعض من يعدون أنفسهم من المسلمين والغيورين على الدين للقيام بأدوار رسمها أعداء الإسلام لعملائهم ليطعنوا ويهاجموا وينتقدوا علماء المسلمين وشيوخهم ومجتهديهم، وليرموهم بالضلال لهدم ثقة الناس بهم وبكل ما يكون مرجعًا دينيًا للمسلمين؛ ليتوصلوا بذلك إلى هدم الدين والإيمان في نفوس المسلمين لتسهل السيطرة عليهم واستعبادهم، والواقع يؤكد ذلك.

ولكن الحمد لله الدين متين لا يهدم ولا يقدر على هدمه أحد، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1]. فهؤلاء المشركون أعداء الإسلام يريدون هدم الدين الإسلامي وعلماءه حتى لا يظهر على غيره من الأديان، وهم يعملون على قدم وساق لتحقيق هدفهم المنشود ولكن هيهات هيهات، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[2].

---

(١) سورة الصف، الآية: ٩.

(٢) سورة الصف، الآية: ٨.

فالدين لا يهدم، وإنما الذي يهدم هو القلوب وهي بمثابة الأوعية والخزائن الحافظة، والقلب الذي فيه دين هو قلب حي عامر، أما القلب الخالي من الدين فهو قلب ميت مهدوم والعياذ بالله، فهؤلاء الذين يطعنون ويهاجمون علماء الدين لا يعلمون خطورة ما يقولون وتأثيره على الناس ضعيفي الإيمان -وما أكثرهم- فضلاً عن إشمات الأعداء بأهل هذه الملة الزكية، وتمكينهم بذلك من القدح في المسلمين، واستضعافهم لشرائع هذا الدين، وقد يقتدي بطعنهم أناس، فيتضاعف وزرهم بعدد من تبعهم، وقل أن يسلم من رمى بفسق أو كفر مسلمًا.

خاتمة المجالس

أخي المسلم الحبيب: كلمة أخيرة أحب أن أوجهها إليك في هذه الخاتمة إضافة إلى ما ذكرته لك من فوائد جليلة في نهاية الفصول التي هي الخاتمة لتلك الفصول، وذلك حتى يستنير لك الدرب وتعرف الطريق الذي يجب أن تسلكه في صحبتك للناس، والصفة التي يجب أن يكون عليها مجلسك معهم.

واعلم أنه بيدك أنت أن تحدد نوعية المجلس الذي تجلسه إما مجلسًا صالحًا وإما مجلسًا سيئًا، ولذلك أحب في خاتمة الكتاب هذه أن أوصيك بثلاث وصايا، وأرجو الله العلي القدير أن يوفقك إلى العمل بها فتنجو مما نهاك الله عنه وحذرك منه رسوله ﷺ، وتفوز بما وعدك الله به فيما لو عملت بما أمرك الله ورسوله به فيما يتعلق بالمجالس والجلساء.

الوصية الأولى:

كثيرًا ما يكون سبب الاجتماع في المجالس هو التجمع فقط، ليس من أجل بحث قضية مهمة أو موضوع خطير، وإنما من أجل الثرثرة في موضوعات شتى لا يرجى منها فائدة، بل ينتج عنها خسائر كبيرة ومنها إضاعة الوقت الذي هو رأس مال الإنسان،

وغالبًا ما يحدد نوعية المجلس شخص يفتتح المجلس بموضوع من الموضوعات فيستمر عليه المجلس بقية الوقت ويُستدرج الجميع إلى التحدث في الموضوع نفسه الذي طرحه ذلك الشخص، فلماذا لا تكون أنت ذلك الشخص فتذهب إلى حيث دُعيت وفي ذهنك بعض الموضوعات المفيدة؟ ولماذا لا تسبق غيرك ممن قد يفتتح المجلس بأحاديث تافهة أو سيئة مثل: الغيبة والسخرية والاستهزاء والطعن واللعن والإفك، إلى افتتاح المجلس الذي تجلسه بموضوع يفيدك ويفيد الجالسين في دينكم وآخرتكم؟ وما أوصيك به في هذه الوصية سهل التطبيق وينجح دائمًا بإذن الله تعالى، وهو أمر مجرب ويمكنك أنت أيضًا أن تجربه[1].

ولا شك أنك لو نجحت في ذلك فأرجو أن يكون لك الأجر العظيم من وجهين: أحدهما أنك جنبت المجلس من الخوض في

---

(١) لقد أخبرني أحد الأشخاص بأنه عمل بنصيحتي وجرب هذه الطريقة في اجتماع عائلته الأسبوعي، فنفعت وأعجب كثيرًا بها، فأخذ يمارسها في كل اجتماع، بل حتى في المرات التي يدخل فيها متأخرًا، فإنه عقب السلام مباشرة يفجر قنبلته فيطرح موضوعه الإسلامي بصيغة المستفسر؛ فيتسابق الجميع للإجابة عليه... وهكذا يسيطر على المجلس الموضوع الذي طرحه.

في أحد الأيام التي زرت فيها شخصًا وكان لديه زوار آخرون يتناقشون فيما لا يفيد؛ طرحت موضوعًا يتعلق بمشكلات الأمة الإسلامية فأخذوا يتناقشون حوله، وبعد وقت قصير غادرت المكان وهم لا زالوا يتناقشون في الموضوع نفسه، فأحببت في الزيارة التالية أن أعرف ماذا جرى بعد مغادرتي فأخبروني بأنهم ظلوا عدة ساعات يتناقشون حول الموضوع الذي طرحته، وكل منهم يدلي بدلوه في كيفية معالجة المشكلات التي تعاني منها الأمة الإسلامية.

الأحاديث الباطلة التي يترتب عليها الوزر عليك وعلى الآخرين، والآخر أنك حددت نوعية الأحاديث في ذلك المجلس فاخترت المفيدة والصالحة التي يكون فيها لك وللآخرين أجر كبير، كما أخبرنا نبينا محمد ﷺ: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[١]، خاصة إذا فعلت ذلك ابتغاء مرضات الله. ولا تنس أبدًا أنه لا خير في كثير من الأحاديث إلا ما استثناه الله تعالى، ولهذا فليكن شعارك الذي تضعه نصب عينيك في كل مجلس قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾[٢]، وقول رسول الله ﷺ: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا، أو ليصمت**»[٣].

الوصية الثانية:

كما يمكنك افتتاح المجلس بما تريد من الموضوعات فيمضي عليه المجلس بقية الوقت، يمكنك أيضًا أن تغير مسار الأحاديث

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

خاصة إذا فاتك افتتاح المجلس لتأخرك أو لسبب من الأسباب، أو حتى عند تغير مسار الحديث وخروجه عن خط الخير والصلاح إلى خط الشر والباطل، أي؛ تكون كمن يدير ندوة بين مجموعة من الناس وبيده دفة الأحاديث يوجهها كيفما يريد، ويستحب أن يكون تغيير مسار الأحاديث في الوقت المناسب، وبذلك تغلق أبواب الشر وتفتح أبواب الخير وطوبى لك إن فعلت ذلك، فقد قال المصطفى ﷺ: «**إن من الناس مفاتيح للخير، مغاليق للشر. وإن من الناس مفاتيح للشر، مغاليق للخير. فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه. وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه**»[1]

الوصية الثالثة:

إذا لم تستطع افتتاح المجلس بما تريد من موضوعات الخير، ولم تستطع كذلك تغيير مسار الأحاديث، واستمر المجلس في أحاديث السوء والكلام المحرم، أو عجزت عن رد الغيبة المحرمة والإنكار على قائلها، أو لم يقبل منك هذا الأمر، فهنا يأتي دور هذه الوصية الثالثة وهي ليست إلا أمر الله تعالى لك وهو: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[2]،

---

(١) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ١٩٤.

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٨.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[1]، فعليك بالإعراض عن هذا المجلس -إن أمكنك ذلك- وعدم القعود فيه إذا لم يخوضوا في حديث غير حديث السوء، وإلا فسوف تكون مثلهم في المأثم كما جاء في الحديث: «**ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر**»[2].

فكما للجالس على مائدة يُشرب عليها الخمر المحرم مشاركة في الإثم مع الشاربين، فكذلك للجالس في مجلس يُأكل فيه اللحم المحرم مشاركة في الإثم مع الآكلين، فالغيبة -مثلاً- هي أكل لحم الإنسان الميت كما شبهها الخالق تبارك وتعالى، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾[3]. فهذا مثال عن الغيبة وإن كان الكلام في حق كل ما يحدث في بعض المجالس من الأمور المحرمة أو المكروهة الأخرى والتي يترتب على الجالس فيها مشاركة الجالسين في الإثم.

هذه الوصايا الثلاث هي في حال كنت في مجالس الناس في غير بيتك، أما إن كان المجلس في بيتك، فهذا له حكم آخر وهو أنك

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٤٠.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢٢٤٦.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

أنت المسؤول الأول عن هذا المجلس، وبيدك أنت لا بيد غيرك اختيار الأحاديث والموضوعات، بل حتى اختيار الضيوف والجلساء أنفسهم بناء على قاعدة: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقي**»[١].

فإذا عملت بهذه الوصية الثالثة، فأرجو أن تكون ممن مدحهم الله تعالى بقوله: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ**﴾[٣]، واللغو: هو الباطل والقول القبيح وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال. قال ابن كثير: «أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم... أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ولا يصدر عنهم إلا كلام طيب»[٤]. فإذا كان ذلك في حق القول القبيح، فما فوقه ـ من الغيبة أو الاستهزاء أو الإفك أو الطعن أو اللعن أو غير ذلك ـ أولى به.

وصية الوصايا:

إذا أردت أن توفر عنك الغم والهم والإحراج والمعاناة التي قد تلقاها عند حضورك مجالس أهل الدنيا بسبب رغبتك في أن تكون

---

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ٥٥.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٣/٤٠٥.

الأحاديث أحاديث صدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس، أحاديث خير وصلاح وفلاح، فما عليك إلا أن تعمل بقول ربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك، ويعلم ما يضرك وما ينفعك، وما يفيدك وما يصلح لك، ولهذا فهو قد أمرك كما أمر رسوله ﷺ بقوله تعالى: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[1].

فمع مثل هؤلاء عليك أن تصبر نفسك وتجتمع بهم، فمعهم لن تشعر بأي هم أو غم أو إحراج أو معاناة لأن أحاديثهم من النوع الذي تتمنى أن يستمر كما هو ولأطول وقت ممكن، فمثل أحدهم كمثل حامل المسك الذي إما أن يعطيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة.

ومع مثل هؤلاء يزداد علمك وتسمو روحك ونفسك ويغفر الله لك ويجعل لك الدرجات العليا من الجنة، لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام: «**الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل**»[2].

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٦.

خاتمة الفوائد الجليلة

اعلم يا أخي أن لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك، واعلم أن سيد الناس جميعًا محمد رسول الله ﷺ، يقول: **«إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفِّر اللسان فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»**[1]. ومعنى «تكفر اللسان» أي تذل وتخضع له، أو هو كناية عن تنزيل الأعضاء اللسان منزلة الكافر بالنعم.

واعلم رحمك الله تعالى أن الناس يكبهم في النار على وجوههم حصائد ألسنتهم، فإن استخدمت لسانك في الخير حصدت الخير، وإن استخدمته في الشر حصدت الشر، وأكثر الآثام والأوزار يكسبها الإنسان بسبب لسانه، فالسلامة كل السلامة في أن تمسك لسانك. فمن حكم سليمان التي أوصى بها ابنه: وإن كنت في مجالس الناس فاحفظ لسانك. قال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. وقال الشافعي:

احفظ لسانك أيها الإنسان ... لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيل لسانه ... كانت تهاب لقاءه الأقران

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٦٢.

وقد قال بعضهم: ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله. كيف لا وهو يمسك الذي يشغل معظم أوقات الإنسان، حتى إنه ليشغله عن الفرائض وسائر الطاعات؟! فمن المؤكد أن من يكون منه لسانه على بال تجده يستزيد من الطاعات ويكثر من الأعمال الصالحة التي تقربه إلى الجنة. والعكس صحيح أيضًا، فما من الناس أحد لا يكون منه لسانه على بال إلا رأيت فساد ذلك في سائر عمله. عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وقاه الله شر ما بين لحييه، وشر ما بين رجليه، دخل الجنة**»[1]. وقال عبد الله ابن مسعود: والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

فما من حركة لسان إلا وفيها إما خير وإما شر، فاحرص دائمًا على أن تكون حركة لسانك في الخير، واعلم أن لديك رسل الله يكتبون ما تقول، قال الله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾[2] فلا تكتب بلسانك في كتابك شيئًا لا تحب قراءته يوم الحساب، وتخيل دائمًا أنك تكتب في آخر صفحة من كتابك وبعدها سيطوى وتموت.

إن حفظ اللسان نجاة لصاحبه، فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أملك عليك لسانك، وليسعك**

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٦٤.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٠.

بيتك، وابك على خطيئتك»[١]، فإذا أردت النجاة فعلاً فاتخذ هذا الحديث قاعدة لك في حياتك. فالنجاة تكون في هذه الوصايا الثلاث من نبي الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، ورسول الله إلى خلقه أجمعين.

«**أملك عليك لسانك**»: روي أن معاذًا قال: «يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه إصبعه»[٢]. نعم... إن أفضل الأعمال سببها اللسان، وذلك من وجهين: الوجه الأول: أن تبقي لسانك رطبًا من ذكر الله، والأمر بالصدقات والمعروف، والإصلاح بين الناس، وهذا من أفضل الأعمال، الوجه الثاني: أن تملك لسانك عن سوى ذلك وعن كل ما ليس فيه خير، وهذا أيضًا من أفضل الأعمال، ويؤكد ذلك الحديث المتفق عليه: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً، أو ليصمت**»[٣]، فالوجه الأول هو: «**فليقل خيراً**»، والوجه الثاني هو: «**أو ليصمت**»، وليس وراء ذلك أي عمل أفضل للسان.

إذًا، أملك عليك لسانك إلا من الوجه الأول «**فليقل خيراً**»، ويدخل في ذلك الكلام الضروري الذي تحتاج إليه في مصالحك المعيشية، ولكن اقتصر على الكلام الذي يحصل به المعنى المطلوب

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٩٦١.

(٢) معجم الطبراني الكبير، باب الميم، معاذ بن جبل الأنصاري.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره.

فالزيادة عن ذلك من فضول الكلام، وتضييع للوقت الذي هو رأس مالك في هذه الحياة، وإنك وإن تكلمت الكلام المباح الذي ليس فيه ضرر عليك أو على مسلم فإنك كما يقول الغزالي: «مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، ولو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيرًا لك فكم من كلمة يُبنى بها قصرًا في الجنة؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزًا من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرًا خسرانًا مبينًا. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى، فإن المؤمن لا يكون صمته إلا فكرًا ونظره إلا عبرةً ونطقه إلا ذكرًا... بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثوابًا في الآخرة فقد ضيَّع رأس ماله. ولهذا قال النبي ﷺ: «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»[1].

قال الأوزاعي: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أما بعد: فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقال أبو بكر بن عياش:

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٨٨٦.

اجتمع أربعة ملوك: ملك الهند وملك الصين وكسرى وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمته ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

وقال أحد الحكماء: إذا قلت الكلمة تمنيت أن لي رقبة زرافة، فقيل للحكيم: لماذا؟ قال: حتى إذا أرادت الكلمة أن تخرج يطول عليها الطريق فأفكر هي لي أم عليَّ. ولذلك عليك أن تفكر بالكلمة مليًا قبل أن تنطقها، فرب كلمة جرت إلى حرب، ورب كلمة قالت لصاحبها دعني، أي؛ لا تقلني، فإني سأضر بك وبغيرك، ولهذا يقول الشاعر:

رب لفظ جر آ جال نيام وقيام

وأحذرك من الثرثرة ومجالسها لأنها تجعلك بغيضًا وتبعدك عن الرسول ﷺ يوم القيامة، فقد جاء في الحديث: «**وإن من أبغضكم إليَّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»[1]، فالرسول ﷺ لا يحب مجالسة الثرثارين ولك به ﷺ أسوة حسنة.

---

(١) صحيح سنن الترمذي، رقم: ١٦٤٢.

وأحذرك أن تأخذ بقول أحد إلا من بعد أن يتبين لك صحته، فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[١]، لذا عليك بالتدقيق والتمحيص في كل ما يقوله لك إنسان، لأن ما تسمعه من الناس فيه الصدق وفيه الكذب، فيه الحق وفيه الباطل، وعليك بالتثبت فيما تقوله وترويه، ولا تحدث بكل ما سمعته حتى لا تكون كاذبًا وحتى لا تكون عميلاً لمنتجي الشائعات، وحتى لا تكون كالببغاء يردد كل ما يسمعه، والأهم من كل ذلك حتى لا تكون أفَّاكًا يقول عن الناس ما بلغه عنهم.

وأنصحك بألا تكثر الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي. فإن عملت بهذه النصيحة فإنك بذلك تتجنب السقطات، فقد روي أن من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به. ولذلك فقد مدح الشرع الصمت وحثَّ عليه وقال رسول الله ﷺ: «**من صمت نجا**»[٢]، وقيل: الصمت حِكَمٌ وقليل فاعله. وقال بعضهم: الصمت يجمع للرجل فضيلتين: السلامة في دينه، والفهم عن صاحبه. وقال الشاعر:

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٣٠٣١.

مت بداء الصمت خير

لك من داء الكلام

وقال آخر:

إن كان يعجبك السكوت فإنه

قد كان يعجب قبلك الأخيارا

ولئن ندمت على سكوتك مرة

فلتندمن على الكلام مرارا

«**وليسعك بيتك**»: هذه دعوة للمؤمن الحريص على أن يبقي صدره سليمًا أن يلزم بيته، وإذا كان هذا في زمن النبي ﷺ، وفي خير القرون، فهو في هذا الزمن أولى، فاحرص على عدم الإكثار من مخالطة الناس، فإن من أكثر من مخالطة الناس كثرت معاصيه، فإنك وإن حرصت على ألا تشاركهم ـ مثلاً ـ في اغتياب الآخرين، فإنك لن تنجو من مشاركتهم في إثم الغيبة باستماعك إليها وهذا هو الهلاك، ولذلك كانت النجاة في «**وليسعك بيتك**»، فإن كان لا بد فكن حريصًا جدًا في اختيار الأصحاب، فلا تصاحب إلا مؤمنًا مخلصًا كما قال الله تعالى: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾[1]، وكما قال رسول الله ﷺ: «**لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا**

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

يأكل طعامك إلا تقي»[١]، وقال ﷺ: **«الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»**[٢].

وأن يكون هذا الصاحب سليم الصدر من الأحقاد والأهواء الضالة، عفيف اللسان عن الألفاظ الفاحشة، يطابق وصفه ما جاء في هذا الحديث، فقد قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: **«كل مخموم القلب صدوق اللسان»**. قالوا: صدوق اللسان، نعرفه. فما مخموم القلب؟ قال: **«هو التقي النقي. لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد»**[٣]

وإياك أن تصاحب مغتابًا أو لعَّانًا أو طعَّانًا أو فاحشًا أو مليء الصدر بالأحقاد وغير ذلك من الصفات الذميمة، وإن حصل أن تبين لك بعد مدة أن في صاحبك شيئًا من هذه الصفات، أو لا يذكر الله إلا قليلاً، أو متهاون ومتكاسل في أمور العبادات، فانسحب عنه بذكاء، وبلطف وهدوء، فقد قال الله تعالى: ﴿ **وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿ **فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾[٥]. هذا بعد أن تنصحه بالحكمة والموعظة الحسنة لتغيير سلوكه السيئ، وتنصحه بالإقبال

---

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٥.

(٢) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٤٠٤٦.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه، رقم: ٣٣٩٧.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٥) سورة النجم، الآية: ٢٩.

على الطاعات وسائر الأعمال الصالحة التي تقربه إلى الله عزَّ وجلَّ، فإن لم تجد تحسنًا بل وجدت أن ذلك راسخ فيه فسلامتك بالإعراض عنه، فقد قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»(١).

فإن لم تفعل فستتأذى منه كثيرًا وسيصيبك ببعض خبائثه، فقد قال ﷺ: «**إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك، إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحًا خبيثة**»(٢).

وهو لا بد أن يصيبك لأنك لا تضمن ـ مثلاً ـ بأنه لن يسيء الظن بكلمة ما تقولها ولن يحملها على المحمل السوء ما دام هذا هو طبعه، فالأولى أن تحفظ نفسك وقلبك. ولكن لا تجعله يشعر بإعراضك عنه، وإياك أن تخبر أحدًا من الناس بما فيه وإلا تكون قد اغتبته، بل الواجب عليك أن تستره، ففي الحديث: «**ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**»(٣).

---

(١) صحيح سنن أبي داود، رقم: ٣٦٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر، باب استحباب مجالسة الصالحين ومجانبة قرناء السوء.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

«**وابك على خطيئتك**»: إن البكاء على الخطيئة يورث ندمًا يدفعك إلى زيادة الطاعات والأعمال الصالحة التي تقربك من الله عزَّ وجلَّ، والبكاء على الخطيئة يورث ذلاً لله تعالى، في حين الإعجاب بالطاعة يورث فخرًا وكبرًا يجعلك ترى نفسك أفضل من الآخرين. والذل والتواضع لله محمود في الشرع، في حين العجب والكبر مذمومان في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾[٢]، وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[٣]. وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب.

ولذلك ابك على خطيئتك، واندم على فعلها، وتفكر فيما يمكنك أن تعمل من أجل عدم الوقوع فيها مرة أخرى، واسأل الله تعالى التوبة النصوح، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٥]. واسأله تعالى العفو والمغفرة، وتقرب إليه بزيادة

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم: ١٨٠٢.

(٤) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٥) سورة النور، الآية: ٣١.

الطاعات والأعمال الصالحة، واسأله أن يعينك على ما يحب ويرضى، وأن يزدك مما يقربك إليه، وأن يرفع به درجتك.

فائدة الفوائد:

عن معاذ رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «**لقد سألتني عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت**»، ثم قال: «**ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل**»، قال: ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ - حتى بلغ - ﴿يَعْمَلُونَ﴾[1]. ثم قال: «**ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه**»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**». ثم قال: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله**»، قلت: بلى يا رسول الله، قال: فأخذ بلسانه، قال: «**كف عليك هذا**». فقلت: يا نبي الله وإنَّا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم**»[2].

---

(١) سورة السجدة، الآية: ١٧.

(٢) صحيح سنن الترمذي، رقم: ٢١١٠.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا ألا يجعلنا من الذين أغفل قلوبهم عن ذكره واتبعوا أهواءهم وكان أمرهم فرطًا، وألا يجعلنا من الذين مرَّ بهم رسول الله ﷺ في معراجه ولهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم لأنهم يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم. بل أسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ويجعل مجالسنا مجالس صالحة محمودة تحفنا فيها الملائكة، وتغشانا الرحمة، وتنزل علينا السكينة، ويذكرنا الله فيمن عنده، ويباهي بنا الملائكة، أو أن يعيننا على صبر أنفسنا مع مثل هؤلاء. وأسأله جل شأنه أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى من القول والعمل، وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن يعيننا على العمل بما علمنا وأن ينفعنا به، إنه أكرم مأمول وبالإجابة جدير.

وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- صحيح البخاري.

٣- صحيح مسلم بشرح النووي.

٤- صحيح سنن أبي داود ـ الألباني.

٥- صحيح سنن الترمذي ـ الألباني.

٦- صحيح سنن ابن ماجه ـ الألباني.

٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل.

٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ـ ابن حجر العسقلاني.

٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ـ وضعه/ محمد فؤاد عبد الباقي.

١٠- صحيح الجامع الصغير للألباني.

١١- سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني.

١٢- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ وضعه/ محمد فؤاد عبد الباقي.

١٣- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ـ وضعه/ لفيف من المستشرقين.

١٤- تفسير القرآن العظيم ـ ابن كثير.

١٥- إحياء علوم الدين ـ أبو حامد الغزالي.

١٦- إعلام الموقعين ـ ابن القيم.

١٧- رياض الصالحين ـ النووي.

١٨- الأذكار ـ النووي.

١٩- شرح متن الأربعين النووية ـ النووي.

٢٠- تلبيس إبليس ـ ابن الجوزي.

٢١- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ـ ابن حبان.

٢٢- إيقاظ همم أولي الأبصار ـ الفلاني.

٢٣- صفة صلاة النبي ﷺ ـ الألباني.

٢٤- التبيان في أقسام القرآن ـ ابن القيم.

٢٥- رفع الريبة فيما يجوز وما لا يجوز من الغيبة ـ الشوكاني.

٢٦- ديوان الإمام الشافعي ـ جمعه: محمد عفيفي الزعبي.

الفهرس

الموضـوع	الصفحة
تقديم لمعالي الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ	٥
المقدمة	٧
اللسان	١٥
- آفات اللسان	١٨
- الكلمة	١٩
الغيبة	٢٣
- الأسباب الباعثة على الغيبة	٢٦
- المباح من الغيبة	٢٨
- فوائد جليلة	٣٢
- كفارة الغيبة	٣٦
سوء الظن غيبة القلب	٣٧
- فوائد جليلة	٤٠
مجالس الغيبة بلباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٤٣
- فوائد جليلة	٥٥
- فائدة الفوائد	٦١
مجالس الثرثرة	٦٧

الموضوع	الصفحة
- أنواع الكلام	٧٠
مجالس السخرية والاستهزاء والاحتقار	٧٣
- المزاح	٧٦
- فوائد جليلة	٧٧
مجالس الإفك	٨١
مجالس اللعن والطعن	٩٣
- مجلس اللعن	٩٧
- مجلس الطعن	١٠٤
- الطعن بالعلماء والشيوخ	١٠٦
- التقليد الأعمى سبب للطعن بالعلماء	١١٣
- فائدة جليلة	١١٩
خاتمة المجالس	١٢٣
- الوصية الأولى	١٢٣
- الوصية الثانية	١٢٥
- الوصية الثالثة	١٢٦
- وصية الوصايا	١٢٨
خاتمة الفوائد الجليلة	١٣١
- فائدة الفوائد	١٤١
المصادر والمراجع	١٤٣
الفهرس	١٤٥

كتب المؤلف

١- الصلاة والرياضة والبدن	الطبعة الأولى	المكتب الإسلامي
٢- لماذا صلاة الفجر	الطبعة الثانية	مكتبة العبيكان
٣- مجالسنا إلى أين	الطبعة الثانية	مكتبة العبيكان
٤- جسمك والتلفزيون	الطبعة الثانية	دار الكتاب والسنة
٥- ولدك والتلفزيون	الطبعة الثانية	دار الكتاب والسنة
٦- دليلك إلى المرأة	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
٧- ماذا يحب الله جلَّ جلاله وماذا يبغض	الطبعة الرابعة	مكتبة العبيكان
٨- التعري الشيطاني	الطبعة الثانية	مكتبة العبيكان
٩- ماذا يحب النبي محمد ﷺ وماذا يكره	الطبعة الثالثة	مكتبة العبيكان
١٠- كيف تكون ناجحًا ومحبوبًا	الطبعة الثانية	مكتبة العبيكان
١١- كيف تكونين ناجحةً ومحبوبةً	الطبعة الثانية	مكتبة العبيكان
١٢- أنت والمال	الطبعة الأولى	مكتبة العبيكان